جماليات التغني بالماضي المجيد
وإبراز مآثر الأجداد في قصيدة بغداد
للشاعر علي الجارم

د. فاطمة المرسى جوهر
مدرس الأدب والنقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

لقد انتقيت قصيدة "بغداد" خاصة من بين قصائد الشاعر علي الجارم في العراق، لأن هذه القصيدة- في رأيي- تتغنى وتشدو بمآثر الأجداد في بلد كان في يوم من الأيام عاصمة الخلافة الإسلامية الزاهرة في دولة بني العباس، كان مهوي الأفئدة، ومحط الآمال، وقبلة القُصّاد في العلم والأدب والفن.

لقد ارتأيت في هذه القصيدة- أو المعلقة الجارمية إن صح هذا التعبير- معاني البعث والإحياء لأمجاد أمة سلفت.. أمجاد أسلافنا، آبائنا وأجدادنا أراد الجارم أن ينشر هذه الأمجاد، ويبعثها من مرقدها لتحيي في نفس كل عربي موات المآثر العظيمة التي نسيتها أو تناسلها أجيال جديدة فلعلها تستلهم من ماضي أمتنا المجيد طريق رشدها وصلاحها وعظمتها.

وكان توجهي في هذا البحث هو التأكيد على عظمة ماضينا العريق من خلال قصيدة "بغداد" لعلي الجارم الذي استطاع بكل اقتدار أن يستلهم الماضي المجيد ليبشر بالمستقبل السعيد من خلال إبراز مآثر الأجداد في قصيدته "بغداد".

ولم أشأ في هذا البحث أن اقتصر على إبراز جماليات تغني الجارم بالماضي المجيد فقط فأكون بذلك قد بترت الأبيات التي تعبر عن ذلك من سياقها العام في القصيدة ككل، بل أكون قد اختزلت مشاعر.. بل شاعرية عبقري قدير كالجارم في الأبيات التي تتحدث عن الماضي المجيد.. لذا تناولت أبيات القصيدة في معظمها بالشرح والتحليل مؤكدة على جماليات التغني بالماضي المجيد.

والله من وراء القصد.. وهو نعم المولى ونعم النصير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بغداد

لشاعر العروبة... علي الجارم

١- بَغْـدَادُ يَـا بَلَـدَ الرَّشِـيدِ ... وَمَنَـارَةَ الْمَجْـدِ التَّلِيـدِ

٢- يَـا بَسْـمَةً لَمَّـا تَـزُلْ ... زَهْـرَاءَ فِي ثَغْـرِ الْخُلُـودِ

٣- يَـا مَـوْطِنَ الْحُـبِّ الْمُقِيمِ ... وَمَضْـرِبَ الْمَثَـلِ الشَّـرُودِ

٤- يَـا سَـطْرَ مَجْـدٍ لِلْعُـرُو ... بَـةِ خُـطَّ فِي لَـوْحِ الْوُجُـودِ

٥- يَـا رَايَـةَ الإِسْـلامِ وَالْـ ... إِسْـلامُ خَفَّـاقُ الْبُنُـودِ

٦- يَـا مَغْـرِبَ الأَمَـلِ الْقَـدِيمِ ... وَمَشْـرِقَ الأَمَـلِ الْجَدِيـدِ

٧- يَا بِنْتَ دِجْلَـةَ قَـدْ ظَمِئْـتُ ... لِرَشْـفِ مُبْسِـمِكِ الْبَـرُودِ

٨- يَـا زَهْـرَةَ الصَّـحْرَاءِ رُدِّ ... ي بَهْجَـةَ الـدُّنْيَا وَزِيـدِي

٩- يَـا جَنَّـةَ الأَحْـلامِ طَـا ... لَ بِقَوْمِنَـا عَهْـدُ الرُّقُـودِ

١٠- يَا بُهْـرَةَ الْمُلْـكِ الْفَسِـيحِ ... وَصَـخْرَةَ الْمُلْـكِ الْوَطِيـدِ

١١- يَـا زَوْرَةً تُحْيِـي الْمُنَـى ... إِنْ كُنْـتِ صَـادِقَةً فَعُـودِي

*****

١٢- بَغْـدَادُ يَـا دَارَ النُّهَى ... وَالْفَـنِّ يَـا بَيْـتَ الْقَصِـيدِ

١٣- نبتَ الْقَـرِيضُ عَلَـى ضِـفَا ... فِـكِ بَـيْنَ أَفْنَـانِ الْـوُرُودِ

١٤- سَـرَقَ التَّـدَلُّلَ مِـنْ عِنَـا ... نِ وَالتَّفَـنُّنِ مِـنْ وَحِيـدِ

١٥- يَشْـدُو كَـأَنَّ لَهَاتَـهُ ... شُـدَّتْ عَلَـى أَوْتَـارِ عُـودِ

١٦- بَغْـدَادُ أَيْـنَ الْبُحْتُـرِيُّ ... وَأَيْـنَ أَيْـنَ ابْـنُ الْوَلِيـدِ

١٧- وَمَجَـالِسُ الشُّـعَرَاءِ فِي ... بَيْـتِ ابْـنِ يَحْيَـى وَالرَّشِـيدِ

١٨- أَيْـنَ الْقِيَـانُ الضَّـاحِكَا ... تُ يَمِسْـنَ فِي وَشْـيِ الْبُـرُودِ

١٩- السَّـاحِرَاتُ الْفَاتِنَـا ... تُ النُّجْـلُ مِـنْ هِيـفٍ وَغِيـدِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٠- السَّاهِرَاتُ مَعَ النُّجُو ... مِ الآنِفَاتُ مِنَ الْهُجُودِ
٢١- مِنْ كُلِّ بَيْضَاءِ الطُّلَى ... مَهْضُومَةِ الْكَشْحَيْنِ رُودِ
٢٢- يَخطِرْنَ حَتَّى تَعْجَبَ الْـ ... أَغْصَانُ مِنْ لِينِ الْقُدُودِ
٢٣- وَإِذَا سَفَرْنَ فَأَيْنَ ضَوْ ... ءُ الشَّمْسِ مِنْ شَفَقِ الْخُدُودِ
٢٤- يَعْبَثْنَ بِالأَيَّامِ وَالْـ ... أَيَّامُ أَعْبَثُ مِنْ وَلِيدِ
٢٥- خَبَأَ الْجَمَالُ لَهُنَّ كَنْزاً ... بَيْنَ سَالِفَةٍ وَجِيدِ

*****

٢٦- كَمْ جَاشَ جَيْشُكَ بِالْفَوَا ... رِسِ مِنْ أَسَاوِرَةٍ وَصِيدِ
٢٧- لِلنَّصْرِ فِي أَعْلاَمِهِمْ ... صِلَةٌ بِأَبْنَاءِ الْعُمُودِ
٢٨- مُلْكٌ إِذَا صَوَّرْتَهُ ... عَجَزَ الْخَيَالُ عَنِ الصُّعُودِ
٢٩- وجُهُودُ جَبَّارِينَ تَصْ ... غُرُ دُونَهَا شُمُّ الْجُهُودِ
٣٠- الرُّسْلُ تَتْلُو الرُّسْلَ مِنْ ... بِيضٍ صَقَالِبَةٍ وُسُودِ
٣١- سَارُوا لِقَصْرِ الْخُلْدِ يُغْشِي ... طَرْفَهُمْ وَهَجُ الْحَدِيدِ
٣٢- يَتَعَثَّرُونَ كَأَنَّهُمْ ... يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْقُيُودِ
٣٣- الْجَوُّ يَسْطَعُ بِالظُّبَا ... وَالأَرْضُ تَزْخَرُ بِالْجُنُودِ
٣٤- حَتَّى إِذَا رَجَعُوا بَدَا ... بِجِبَاهِهِمْ أَثَرُ السُّجُودِ

*****

٣٥- الْفَلْسَفَاتُ عَرَفْتُهَا ... وَالْعِلْمُ طِفْلٌ فِي الْمُهُودِ
٣٦- وَالْغَرْبُ يَنْظُرُ فِي خُمُودٍ ... نَحْوَ قَاتِلَةِ الْخُمُودِ
٣٧- كَمْ مَوْئِلٍ لِلْمُسْتَجِيرِ ... وَمَنْهَلٍ لِلْمُسْتَفِيدِ
٣٨- وَ الْجَاحِظُ الْمَرِحُ اللَّعُو ... بُ يَغُوصُ لِلدُّرِّ الْفَرِيدِ
٣٩- بَغْدَادُ يَا وَطَنَ الأَدِيبِ ... وَأَيْكَةَ الشِّعْرِ الْغَرِيدِ
٤٠- جَدَّدْتِ أَحْلاَمِي وَكُنْتُ ... صَحَوْتُ مِنْ عَهْدٍ عَهِيدِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤١- جَمَحَ الْخَيَالُ فَمَا اطْمَأَنَّ ... وَلا اسْتَقَرَّ إِلَى خُلُودِ
٤٢- جَازَ الْقُرونَ الثَّانِيَا ... تِ وَفَكَّ أَسْرَارَ الْعُقُودِ
٤٣- ذَكَرَ الْعُهُودَ فَأَنَّ لِلـ ... ـكُرَى وَحَنَّ إِلَى الْعُهُودِ
٤٤- وَاهْتَاجَهُ الطَّيْفُ الْبَعِيدُ ... فَجُنَّ لِلطَّيْفِ الْبَعِيدِ
٤٥- وَصَبَا إِلَى ظِلِّ الْعُرُو ... بَةِ فِي حِمَى الْمُلْكِ الْعَتِيدِ

*****

٤٦- يَا أُمَّةَ الْعَرَبِ ارْكُضِي ... مِلءَ الْعِنَانِ وَلاَ تَهِيدِي
٤٧- سُودِي فَآمَالُ الْمُنَى ... وَالْعَبْقَرِيَّةِ أَنْ تَسُودِي
٤٨- هَذَا أَوَانُ الْعَدْوِ لاَ الْـ ... ـإِبْطَاءِ وَالْمَشْيِ الْوَئِيدِ
٤٩- الْمَجْدُ أَنْ تَتَوَثَّبِي ... وَإِذَا وَثَبْتِ فَلاَ تَحِيدِي
٥٠- وَتُحَلِّقِي فَوْقَ النُّجُو ... مِ بِلاَ شَبِيهٍ أَوْ نَدِيدِ
٥١- وَإِذَا شَدَا الْكَوْنُ الْمَفَا ... خِرَ كُنْتِ عُنْوَانَ النَّشِيدِ
٥٢- لاَ تَخْطِئِي حَدَّ الْعُلاَ ... مَا لِلْمَعَالِي مِنْ حُدُودِ
٥٣- مَنْ يَصْطَدِ النِّمرَ الْوَثُو ... بَ يَعِفُّ عَنْ صَيْدِ الْفُهُودِ

*****

٥٤- هَذِي طَلاَئِعُ نَهْضَةٍ ... ذَهَبَتْ بِآثَارِ الرُّكُودِ
٥٥- بَغْدَادُ أَشْرَقَ نَجْمُهَا ... وَبَدَا بِهَا سَعْدُ السُّعُودِ
٥٦- سَلَكَتْ إِلَى الْمَجْدِ الْقَدِيمِ ... مَحَجَّةَ النَّهْجِ السَّدِيدِ
٥٧- وَزَهَتْ بِأَقْمَارِ الْهُدَى ... وَسَطَتْ بِأَظْفَارِ الأُسُودِ
٥٨- بَغْدَادُ إِنَّا وَفْدَ مِصْـ ... ـرَ نَفِيضُ بِالشَّوْقِ الأَكِيدِ
٥٩- جِئْنَا نُحَيِّي الْعِلْمَ وَالْـ ... ـآدَابَ فِي الْعَدَدِ الْعَدِيدِ
٦٠- مَرْآكِ عِيدٌ لِلْمُنَى ... فُزْنَا بِهِ فِي يَوْمِ عِيدِ
٦١- أَهْلُوكِ أَهْلُونَا وَأَبْنَا ... ءُ الْعَشِيرَةِ وَالْجُدُودِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٦٢- بَيْنَ الْقُلوبِ تَشَوُّقٌ ... كَتَشَوُّفِ الصَّبِّ الْعَمِيدِ

٦٣- حَتَّى يَكَادَ يُحِبُّ نَخلَكِ ... نَخْلُ أَهْلِي في رَشِيدِ

٦٤- شَطَّتْ مَنَازِلُنَا وَمَا ... احْتَاجَ الْفُؤَادُ إِلَى بَرِيدِ

٦٥- الرَّافِدَانِ تَمَازَجَا ... فِي الْحُبِّ بِالنِّيلِ السَّعِيدِ

٦٦- وَتَعَانَقَ الظَّلاَّنِ ظِلُّ ... الطَّاقِ وَالْهَرَمِ الْمَشِيدِ

٦٧- جِئْنَاكِ نَسْتَبِقُ الْخُطَا ... أَلضَّاءَ أَوْدِيَةٌ وَبِيدِ

٦٨- طَالَتْ بِنَا الصَّحْرَاءُ حَتَّى ... خِلْتُهَا أَبَدَ الأَبِيدِ

٦٩- يَتَخَلَّصُ الْمَرْمَى الْمَدِيدُ ... بِهَا إِلَى مَرْمَى مَدِيدِ

٧٠- كَتَخَلُّصِ الْحَسْنَاءِ مِنْ ... وَغْدٍ طَوَتْهُ إِلَى وُغُودِ

٧١- بَحْرٌ بِلاَ شَطَّيْنِ يَزْ ... خَرُ بِالتَّنَائِفِ وَالنُّجُودِ

٧٢- وَسَفِينَتِي "نَرْنٌ" بِهَا ... مَا فِي فُؤَادِي مِنْ وُقُودِ

٧٣- جِئْنَا إِلَى الْغَازِي سَلِيلِ ... الْعُرْبِ وَالْحَسَبِ الْمَجِيدِ

٧٤- نَخْتَالُ بَيْنَ هِبَاتِهِ ... فِي ظِلِّ إِحْسَانٍ وَجُودِ

٧٥- أَحْيَا الْمُنَى بِالْعَزْمِ ... وَالتَّدْبِيرِ وَالسَّعْيِ الْحَمِيدِ

٧٦- وَغَدَتْ بِهِ سُوحُ الْعُرو ... بَةِ مَنْهَلاً عَذْبَ الْوُرُودِ

٧٧- فِي نَهْضَةِ الْفَارُوقِ ... وَالْغَازِي غِنىً لِلْمُسْتَزِيدِ

٧٨- فَارُوقُ مُنْبَثَقُ الرَّجَا ... ءِ وَمُلْتَقَى الرُّكْنِ الشَّدِيدِ

٧٩- عَاشَا وَعَاشَ الشَّرْقُ فِي ... عِزٍّ وَفِي عَيْشٍ رَغِيدِ

*****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لغويات القصيدة:

٣ – الشرود: الذائع المنتشر.

٧ – المبسم: الثغر، وهو ما تقدم من الأسنان حيث يكون الابتسام، والمراد: الريق.

البرود: البارد.

١٠ – بهرة الملك: قصبته ومقره.

١٤ – عنان: جارية الناطفي، كانت مغنية رائعة الحسن فاتنة الدلال.

وحيد: اسم مغنية اشتهرت في العصر العباسي بافتنانها في الغناء، ولابن الرومي قصيدة في وصفها.

١٦ – ابن الوليد المقصود به: مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني كان أيضاً من الشعراء المفلقين في عهد هارون الرشيد، وهو أول من تكلف البديع في شعره، وكانت وفاته بجرجان سنة ٢٠٨هـ.

١٨ – القيان: جمع قينة وهي الأمَة المغنية.

الوشى: مصدر وشيت الثوب من باب وعد أي رقمته ونقشته.

البرود: جمع برد وهو الثوب المخطط.

١٩ – النجل: جمع نجلاء صفة من النجل بفتحتين وهو سعة العين وحسنها.

هيف: جمع هيفاء صفة من الهيف بفتحتين وهو ضمر البطن ورقة الخاصرة.

غيد: جمع غيداء صفة من الغيد بفتحتين وهو لون من الانعطاف والتثني.

٢١ – الطلي: الأعناق وأصولها، واحدتها طلية.

مهضومة: ضامرة لطيفة، الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، مهضومة الكشحين: هيفاء ضامرة البطن رقيقة الوسط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رود: رقيقة ناعمة.

٢٢ – القدود: جمع قد وهو القامة وحسن التقطيع والاعتدال.

٢٥ – السالفة: جانب العنق. الجيد: العنق أو مقدمه أو موضع القلادة منه.

٢٦ – جاش جيشك: ماج واضطرب لكثرته كالبحر الزاخر المائج

الأساورة: جمع أسوار بضم الهمزة وهو القائد والجيد الرمي بالسهام.

الصيد: جمع أصيد وهو الملك ورافع رأسه كبرا والأسد.

٢٧ – أبناء الغمود: كناية عن السيوف.

٣٠ – الصقالبة: جيل تتأخم بلادهم بلاد الخزر بين بلغر وقسطنطينية، والمراد الأمم والممالك الأوربية المجاورة لبحر الخزر والبحر الأسود في الشمال والغرب.

٣١ – يريد بقصر الخلد: قصر الخليفة ببغداد، الطرف: العين. يعشى طرفهم: يصيب عيونهم بالعشا، وهو سوء البصر بالليل والنهار.

٣٣ –الظبا: جمع ظبة وهي حد السيف والرمح ونحوهما.

٤٠ – عهد عهيد: زمن قديم.

٤٥ – صبا: مال وتاق.

٤٦ – لا تهيدي: لا تبالي أو تخافي.

٥٦ – المحجة: جادة الطريق أي معظمه.

٥٧ – زهت: افتخرت وتاهت، ويريد بأقمار الهدى علماءها الأعلام وقادتها وزعماءها الذين يهدونها سبيل الرشاد. سطت: صالت وقهرت وبطشت.

٦٠ – المنى: جمع منية وهي ما يتمناه الإنسان ويريده ويهواه.

٦٢ – التشوف: التطلع والنظر والإشراف، والمراد الحب والاشتياق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصب: العاشق المستهام، العميد: الذي هده العشق وأضناه الغرام.

٦٤ – شطت: بعدت.

٦٦ – الطاق: إيوان كسرى وهو على مسافة غير بعيدة عن بغداد، المشيد: المطلي بالشيد وهو ما تطلى به الجدران من جص ونحوه، المشيد أيضا: الرفيع العالي.

٦٧ –انضاء: جمع نضو وهو المهزول الذي أضعفه السفر وأضناه أي هزله.

٦٨ – خلتها: ظننتها. الأبد: الدهر والزمان الدائم.

٧١ –التنائف: جمع تنوفة وهي المغازة أو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس. والنجود: جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض.

٧٢ – أراد بالسفينة: السيارة الكبيرة الصحراوية التي كان يركبها.

٧٣ – الملك غازي: ملك العراق ابن الملك فيصل ابن الملك حسين.

٧٦ – السوح: جمع ساحة وهي الناصية والفضاء بين دور الحي.

٧٨ – منبثق: اسم مكان من انبثق السيل ونحوه إذا تفجر. الركن: العز والمنعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حول الشاعر والقصيدة

أولاً: الشاعر:

اسمه الأصلي كاملاً: علي محمد صالح عبد الفتاح إبراهيم محمد الجارم.

وفي مدينة رشيد[١] (على الشاطئ الغربي من النيل عند مصبه في البحر المتوسط) شرقي الإسكندرية وُلد علي الجارم في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ في أسرة حسيبة نسيبة من سلالة عليّ بن أبي طالب- كرم الله وجهه- وكان، أبوه عالماً دينياً، وأديباً لغوياً ومفتياً للمحافظة، ولما شب شاعرنا عن الطوق أسلمه ذلك الأب الحاني إلى كُتّاب رشيد فحفظ القرآن تحت رعايته، ولما رأى الوالد في ابنه رفاهة الحس، وتوقد الذهن، ومخايل الذكاء شمله بالدراسة والتذكرة والتشجيع فكان من آثار ذلك أن الابن- علي الجارم- قال الشعر مبكراً وسنّه لا تزيد عن خمسة عشر عاماً، وكان أول نظمه في ذلك الوباء- الكوليرا- الذي دهم بلدته رشيد:

أَيُّ هَـذَا المِكْـرُوبُ مَهْـلاً قَلِـيلاً ... قَدْ تَجَاوَزْتَ في شُرَاكَ السَّبِيلاَ[٢]

لقد حرص أبوه على أن يؤدبه بالآداب الإسلامية، ومكارم الأخلاق، وأن يمرن لسانه على النطق السليم بعد أن مرنه على تجويد القرآن وترتيله مما كان لذلك كله أثره الطيب على إنشاده الشعر بعد ذلك، فلا عزو بعد ذلك أن يختاره أمير الشعراء شوقي- الذي كان محروماً من نعمة حسن الإنشاد- لينشد له شعره فهو البلبل الصداح والطائر الغرّيد في إنشاد الشعر.

لقد حصّل شاعرنا على طول سني حياته الدراسية ثقافة عالية أهلته لأن يكون بحق رائداً من رواد البعث الأدبي واللغوي والعلمي في العصر

---

(١) يقال إن كثيراً من أهلها من سلالة قريش أفصح العرب (انظر علي الجارم باحثاً وأديباً، محمد الغزالي حرب، دار الفكر العربي ١٩٨٦، ص ٩).

(٢) ديوان الجارم، جـ ٢، ص ٤٩٦، ط ١٩٨٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحديث، وآية ذلك أنه درس في المعهد الديني الثانوي، ثم في مدرسة دار العلوم، ولتفوقه في دراسته الجامعية إذ كان أول دفعة المتخرجين فيها سنة ١٩٠٨م، أوفد في بعثة إلى انجلترا لمدة ثلاث سنوات فنهل وعبّ من علوم شتى كعلم النفس، والمنطق، وعلوم التربية، والأدب الإنجليزي، وحصل على إجازة في كل هذه العلوم، ثم عاد إلى وطنه مصر في أغسطس عام ١٩١٢ وقد استوت ثقافته على سوقها، وبدأ يخوض غمار الحياة العملية فعُين مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة، ثم نقل إلى دار العلوم مدرساً لعلوم التربية وعلم النفس[١]، ثم نُقل بعد ذلك مفتشاً بوزارة المعارف، ثم رُقي إلى وظيفة كبير مفتشي اللغة العربية وبقي فيها حتى سنة ١٩٤٠م حين نُقل وكيلاً لدار العلوم ثم عميداً وظل فيها إلى أن أُحيل على المعاش سنة ١٩٤٢م.

رحلة ليست بالقصيرة عاشها الجارم صداحاً في أيكة الشعر، لم ينقطع منذ أن شب عن الطوق عن قول الشعر في مختلف الأغراض من إشادة أو تحية أو تكريم أو رثاء لأعلام السياسة والأدب والعلم والطب فقد أحس أنه الشاعر المسئول عن ملء الفراغ الذي تركه أقطاب الشعر الثلاثة في عصره: شوقي وحافظ ومطران، فكان جديراً أن يطلق عليه صناجة العرب أو صناجة الأثير[٢].

---

(١) المعجميون في خمسين عاماً للأستاذ الدكتور محمد مهدي علام، ط ١٩٨٦م، ص ١٩٩.

(٢) أطلق عليه هذه التسمية الشاعر كمال النجمي في مقال له بمجلة الهلال عدد سبتمبر ١٩٨٧م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانياً: القصيدة ومناسبتها

وقصيدة "بغداد" ليست هي القصيدة الوحيدة في ذلك البلد العريق- كما رأينا- بل هي ضمن أربع قصائد شدا بها الجارم في ربوع بغداد وهي "رثاء الزهاوي" و"مصر تعزى العراق" و"الصلح بين القبائل" ولكن قصيدة "بغداد" كانت هي عروسهن التي جلاها الجارم بعبقريته الفذة فجاءت شاهد صدق على غرامه بالعروبة وعشقه للعربية فكان من أوائل اللاهجين بها وفي مقدمة المؤرثين للقومية العربية بإشعال جذوات الماضي العربي التليد ليتبين العرب طريق مستقبلهم الجديد ونتيجة لصدقه تجاه عروبته كانت قصائده تلقي صدى بعيداً واستحساناً منقطع النظير وتمجيدا كتمجيد الشعوب لأبطالها عندما ترجع من فتح جديد، لقد كان الجارم أحد الفرسان الصائلة في ميادين الفصاحة الباهرة، حين كانت البلاغة مهوى النفوس، وحين كان الجمهور ذواقا يلم بشذور من روائع الأدب في القديم والحديث فلما مثّل مصر بشاعريته الحافزة، وديباجته العربية الناصعة، جذب الأسماع لما يقول، لقد كان الحفل الجهير يضم أفذاذ الشعر من كل وطن وعربي، ولكل شاعر منزلته الرفيعة دون ريب، ولكن الجارم يقف في الطليعة بين شعراء كبار فتكون قصيدته مجال التقدير والملاحظة، ويعود إلى مصر وكأنه عاد من فتح حربي بعد أن سجل بطولة الانتصار.

وللجارم ولع خاص ببلد "الرشيد" فقد زارها أكثر من مرة فتوطدت أواصر حب عربي بينهما، فلعل هذه الزورات في مناسبات مختلفة ممثلا لمصر والعروبة هي التي عقدت ذلك الغرام بينها وبينه، وجعلته يسجل هذه القصائد العصماء في مآثرها وأمجادها:

سَمَوْتُ إِلى بَغْداد والشَّوْقُ نَحْوَها يُسَاوِرُني حِيناً وحِيناً أُسَاوِره

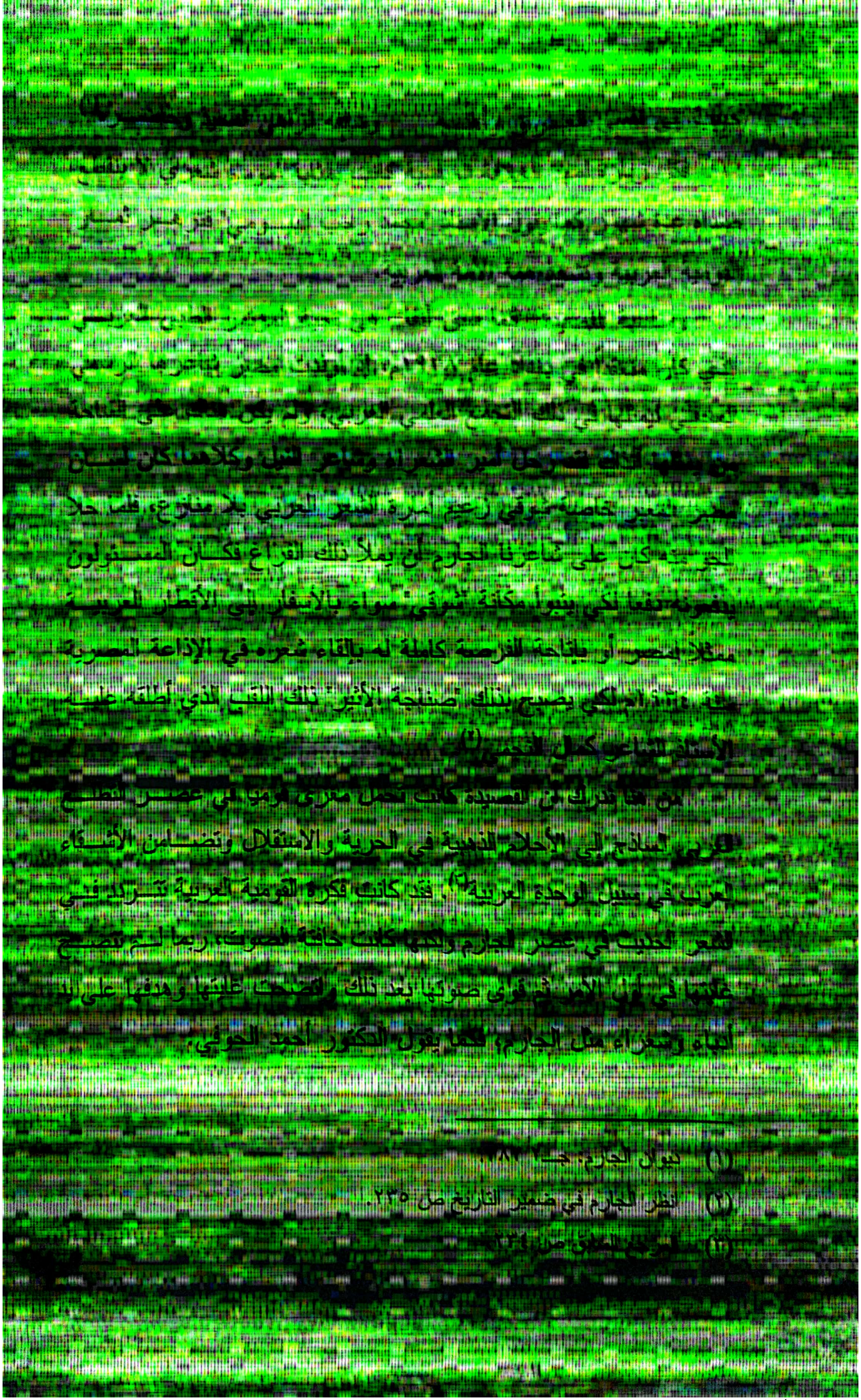

(١) ديوان الحارم، جـ١، ص٣٨٢.

(٢) نظر الحارم في ضمير التاريخ ص ٢٣٥.

(٣) [illegible] المرجع السابق ص ٢٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

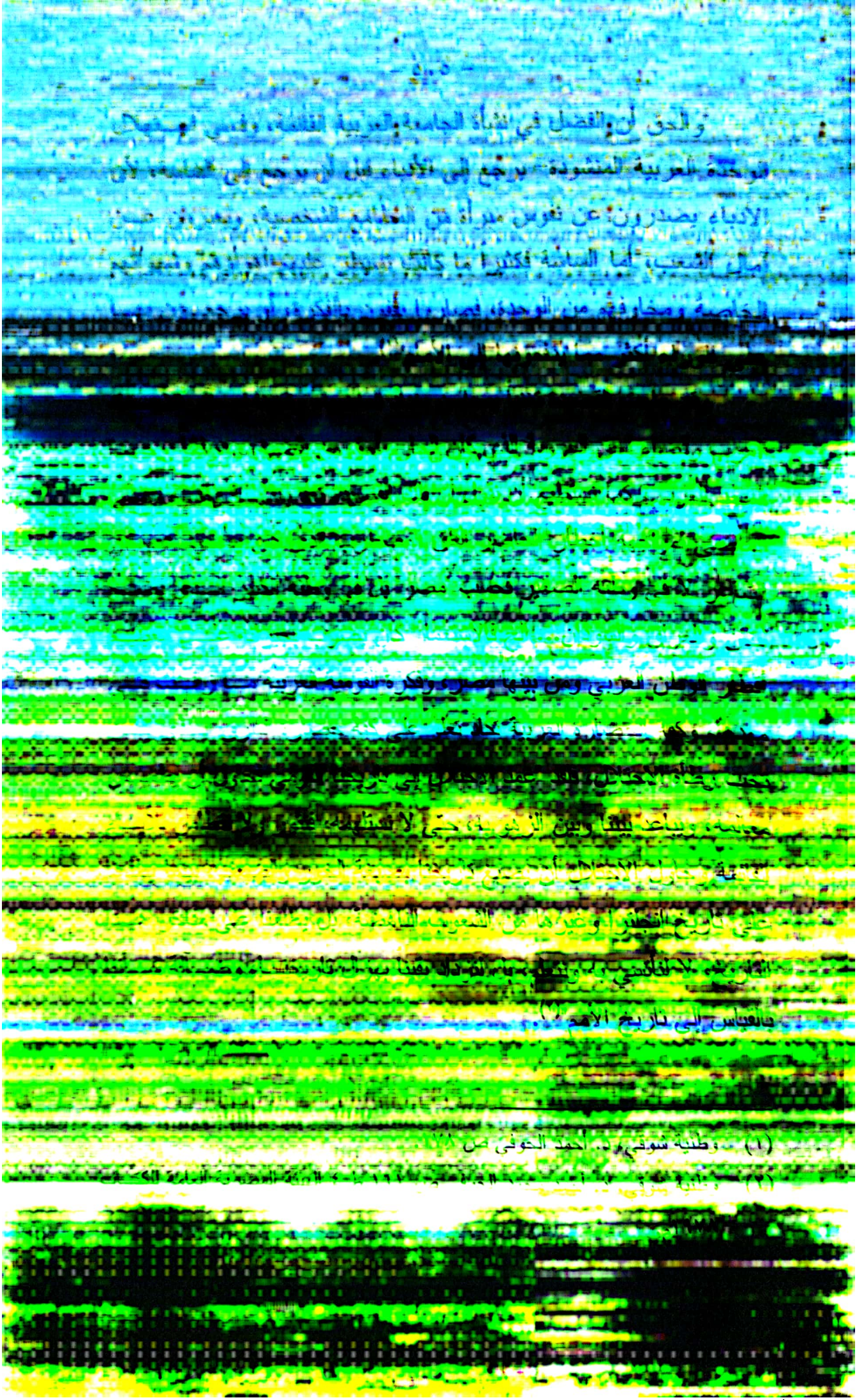

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذن قصيدة "بغداد" كانت ذات توجه محدد، ونظمت في ظروف معينة، وأريد بها في المقام الأول أن تكون رسالة غير مباشرة من خلال ذلك المؤتمر الطبي العربي في التاسع من فبراير سنة ١٩٣٨م، رسالة تتغنى- في الظاهر- ببغداد عاصمة الخلافة العباسية الذي طوى التاريخ صفحتها ويريد الجارم أن ينشرها مرة أخرى متألقة ومشرقة بالحضارة الإسلامية في الدين واللغة والوحدة والتآلف، وهو لا يتغنى ببغداد بل هو يتغنى- في الحقيقة- بالعالم العربي كله، وعندما يعدد مفاخر بغداد ومآثرها فإنما يعدد أمجاد الأمة العربية بأسرها معبراً عن ذلك الوجود العربي الشامل في مواجهة الوجود الاستعماري الجاثم آنذاك على أقطار الوطن العربي، وعندما يستنهض همم أبناء العراق ويحفز مشاعرهم لمواجهة الحاضر والمستقبل فإنما هو يستنهض همة الأمة العربية قاطبة لتصحو من غفلتها وتحدد وجهتها تجاه النصر والحرية والسلام. والذي يؤكد ما نذهب إليه من أن هدف الشاعر كان محددا في تلك القصيدة وموجها لبعث الماضي المجيد واستنهاض الهمم أنه لم يشر أية إشارة إلى المؤتمر الطبي الذي حضره والاحتفال بأعضائه، أو يعرج على مهنة الطب السامية أو الأطباء ملائكة الرحمة الذين يقفون أنفسهم على ممارستها مثلما فعل في افتتاح المؤتمر الطبي العربي ببيروت عام ١٩٤٤م وكان ممثلا فيه للمجمع اللغوي وقد أخذ يشيد فيه بجهود الأطباء وبأدائهم المتواصل في خدمة البشرية:

زُمَرٌ من البَشَرِ الملائكِ كم لهم ... في الطبِّ من غُرَرٍ ومن أوْضاح

بذلوا النفوسَ فكم شهيدِ جِراحةٍ ... منهم وكم منهم شهيدُ كِفاح

إنه لم يفعل ذلك في هذا المؤتمر الطبي مثلما فعل في المؤتمر الطبي الذي حضره بعد ذلك لأن هدفه الأول كان الإشاد بمجد العرب والتغني بمغرب الأمل القديم في بغداد الغابرة ومشرق الأمل الجديد في بغداد الحاضرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البناء الفكري والتحليل الأدبي والفني
لقصيدة "بغداد"

لا يكاد قارئ قصيدة "بغداد" يفرغ من قراءتها حتى يجد في نفسه ميلا أن يعاود قراءتها مرات ومرات مقلبا بصره فيها منقباً عن الإبداع وأسرار الجمال الذي تتسم به هذه القصيدة بشهادة معظم الذين اطلعوا على شعر العروبة عند الجارم.

ويتساءل القارئ من أين ذلك الإبداع... وما هو سر الجمال الذي حونه تلك الرائعة الجارمية...؟

أهو من الموضوع الذي عالجته...؟ أم الفكر الذي احتوته..؟ أمن الصياغة اللغوية أم البيانية والتصويرية... أم من كل ذلك جملة واحدة بما يبين عن قدرة الشاعر وتمكنه الفني...؟

ولا يستطيع القارئ أن يجيب على كل هذه التساؤلات التي تدور بخلده وأكثر منها، ولن يضع يده على سر الجمال الذي ينبع منها إلا بعد أن يقرأ تلك القصيدة قراءة متأنية واعية يشرك فيها سمعه وبصره، فيرهف السمع لتلك الموسيقى المناسبة بين اللفظ واللفظ بل بين الحرف والحرف، ويجيل بصره في الألفاظ والجمل ويضعها أمام ناظريه وكأنها مرآة تعكس صوراً خلابة تسر الناظرين، عندئذ سيرى القارئ جمال تلك القصيدة رأي العين مجلواً أمامه، ويرى الإبداع الشعري فيما يقرأ من أبيات الشعر، ويرى التعبير الفني شاخصا مشرقا ينساب في لحن عذب فيدرك من أسرار الحسن والبهاء ما يزيده إعجاباً بالقصيدة... ونيل الغاية من دراستها، من هنا أكد النقاد على قارئ النص الأدبي ومتذوقه أن يقرأه مرات ومرات متأنياً، متأملاً، متملياً فإن هو فعل ذلك فقد نال شهي الجنى وقارب الغاية من دراسة النص، تقول "مرجري بلوتون" في ذلك:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"إن القصيدة الجيدة تكشف لنا عن ألوان من الطرافة والإمتاع في القراءة العشرين أكثر مما بدا منها في القراءة الأولى، لأننا دائماً سنجد شيئاً جديداً فيها"(١).

وبعد القراءة المتأنية للقصيدة نستطيع أن نغوص في أغوارها وننقب عن مواطن الجمال فيها، ونحلل بناءها الفكري الذي هو بمثابة الهيكل المعماري فنجد هذا البناء يدور حول فكرة رئيسية انبثقت منها القصيدة ألا وهي "التغني بمحاسن الماضي، وتقييد مآثر الآباء" هذه الفكرة التي تدور في فلكها بقية الأفكار تنجذب إليها كما تنجذب الكواكب للنجم الكبير هي "بغداد" تلك التي أصبحت هوى الشاعر وقبلة أشعاره فلطالما تردد عليها مرة ومرة حتى جمع بينهما ذلك الحب الخالد... بغداد بحضارتها القديمة والحديثة... وحضارة وادي الرافدين... حضارة أمة بأسرها كان لها في يوم من الأيام العزو الصولجان.

أما مجموعة الأفكار التي انبثقت من الفكرة الأم وتعلقت بها ودارت في إطارها فتضم عدة عناصر أساسية هي بمثابة الدعائم التي يقوم عليها البناء الفكري بجزئياته الفكرية المتلاحمة داخل هذا البناء الشامخ، هذه العناصر ومكوناتها الجزئية في هذه القصيدة تتلخص فيما يلي:

---

(١) اللغة الفنية، مرجري بلوتون، ص ٣٥ تعريب د. محمد حسن عبد الله- دار المعارف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١) مناجاة بغداد، وتشمل أحد عشر بيتاً:

١- بَغْـــدَادُ يَـــا بَلَـــدَ الرَّشِـــيدِ ... وَمَنَـــارَةَ الْمَجْـــدِ التَّلِيـــدِ
٢- يَـــا بَسْـــمَةً لَمَّـــا تَـــزُلْ ... زَهْـــرَاءَ فِي ثَغْـــرِ الْخُلُـــودِ
٣- يَـــا مَـــوْطَنَ الْحُـــبِّ الْمُقِـــيمِ ... وَمَضْـــرِبَ الْمَثَـــلِ الشَّـــرُودِ
٤- يَـــا سَـــطْرَ مَجْـــدٍ لِلْعُـــرُو ... بَـــةِ خُـــطَّ فِي لَـــوْحِ الْوُجُـــودِ
٥- يَـــا رَايَـــةَ الإِسْـــلامِ وَالْـــ ... إِسْـــلامُ خَفَّـــاقُ الْبُنُـــودِ
٦- يَـــا مَغْـــرِبَ الأَمَـــلِ الْقَـــدِيمِ ... وَمَشْـــرِقَ الأَمَـــلِ الْجَدِيـــدِ
٧- يَا بِنْـــتَ دِجْلَـــةَ قَـــدْ ظَمِئْـــتُ ... لِرَشْـــفِ مُبْسِـــمِكِ الْبَـــرُودِ
٨- يَـــا زَهْـــرَةَ الصَّـــحْرَاءِ رُدِّ ... ي بَهْجَـــةَ الـــدُّنْيَا وَزِيـــدِي
٩- يَـــا جَنَّـــةَ الأَحْـــلامِ طَـــا ... لَ بِقَوْمِنَـــا عَهْـــدُ الرُّقُـــودِ
١٠- يَـــا بُهْـــرَةَ الْمُلْـــكِ الْفَسِـــيحِ ... وَصَـــخْرَةَ الْمُلْـــكِ الْوَطِيـــدِ
١١- يَـــا زَوْرَةً تُحْيِـــي الْمُنَـــى ... إِنْ كُنْـــتِ صَـــادِقَةً فَعُـــودِي

إن أول فكرة تعد مدخلا للحديث عن بغداد هي بيان عظمة بغداد، والتغني بمظاهر تلك العظمة في صورة مباشرة ومكثفة، تدور حول جمالها وبهائها وعراقتها، وإذا كان الحديث في هذه الأبيات عن عظمة بغداد مباشرا فإن تلك العظمة التي تحوي الجمال والبهاء والعراقة ستظل ملحوظة على امتداد القصيدة. فبغداد هي بغداد التي عرفها التاريخ منذ كانت عاصمة الخلافة العباسية في أوج عظمتها وقوتها وحضارتها، عاصمة الرشيد التي تقلب في أفيائها الأدب، وكانت له دولة وصولة، فلا غرو أن يناجيها الشاعر العربي "الجارم" ويخلع عليها تلك الألقاب الرفيعة الرقيقة فهي: بسمة في ثغر الخلود:

يَـــا بَسْـــمَةً لَمَّـــا تَـــزُلْ ... زَهْـــرَاءَ فِي ثَغْـــرِ الْخُلُـــودِ

وموطن الهوى الدائم، ومضرب المثل السائر:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يَـــا مَـــوْطِنَ الْحُـــبِّ الْمُقِـــيمِ وَمَضْـــرِبَ الْمَثَـــلِ الشَّـــرُودِ

وهي ذلك السطر الناصع في مجد العروبة الذي خطه الزمن في لوح الوجود:

يَـــا سَـــطْرَ مَجْـــدٍ لِلْعُـــرُو بَـــةِ خُـــطَّ في لَـــوْحِ الْوُجُـــودِ

وهي راية الإسلام أيام كان الإسلام في أوج مجده، راياته عالية خفاقة:

يَـــا رَايَـــةَ الإِسْـــلامِ وَالْـــ إِسْـــلَامُ خَفَّـــاقُ الْبُنُـــودِ

كما أنها- أي بغداد- إذا كانت مغرب الأمل الغابر فهي الآن مشرق الأمل القادم:

يَـــا مَغْـــرِبَ الأَمَـــلِ الْقَـــدِيمِ وَمَشْـــرِقَ الأَمَـــلِ الْجَدِيـــدِ

إنها بنت دجلة التي تروي العطاش:

يَـــا بِنْـــتَ دِجْلَـــةَ قَـــدْ ظَمِئْـــتُ لِرَشْـــفِ مُبْسِـــمِكِ الْبَـــرُودِ

وهي زهرة الصحراء التي ترد بهجة الدنيا وزيادة:

يَـــا زَهْـــرَةَ الصَّـــحْرَاءِ رُدِّ ي بَهْجَـــةَ الـــدُّنْيَا وَزِيـــدِي

هي جنة الأحلام التي طال انتظارها ليتفيأ المستقبل الباسم في ظلالها

الوارفة:

يَـــا جَنَّـــةَ الأَحْـــ ـــلَامِ طَـــا لَ بِهَـــا انْتِظَـــارُ الْمُسْـــتَعِيدِ

ثم واصلت الحديث في ساحة الملك الوطيد، وصخرة الأمم القوية التي ظلت تناطح قروناً طويلة:

يَـــا بُهْـــرَةَ الْمُلْـــكِ الْمُشَـــيَّدِ وَصَـــخْرَةَ الْمُلْـــكِ الْوَطِيـــدِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنها تلك الزورة التي تحمل الرجاء في العودة الصادقة مرة أخرى:

يَـــا زَوْرَةً تُحْيِـــي الْمُنَـــى إنْ كُنْـــتِ صَـــادِقَةً فَعُـــودِي

وقد تحقق للشاعر حلمه في زيادة بغداد أكثر من مرة، وروى شعره من شذاها وعبقها.

ونستطيع أن نقول إن ذلك المدخل أو تلك المقدمة في مناجاة بغداد بتلك البيات التي تقطر رقة وتناسب في ديباجة عذبة من الألفاظ المنتقاة هي بمثابة مقدمة غزلية خلعها الشاعر على محبوبته العراق، ويعضد ما نذهب إليه أن الشاعر ينتمي إلى المدرسة الكلاسيكية فهو "أحد أعلام الاتجاه البياني المحافظ في الشعر العربي الحديث، هذا الاتجاه الذي راد طريقه البارودي أولاً، ووصل إلى غايته شوقي فيما بعد، ثم كان الجارم واحداً من الذين تصدروا السائرين في هذا الاتجاه"[1]. فكأنه بتلك المناجاة يغازل حبيبة له ملكت عليه فؤاده واسر لبه جمالها فشرع يتغنى في ذلك الجمال الخلاب معدداً عناصره مناجياً ومناغياً له بتلك النداءات "يا"المتكررة التي وشت بهوى الشاعر المفتون نحو محبوبته "بغداد" بل إننا نجد ذلك الهوى قد تغلغل في أعماقه فأصبحت تلك المحبوبة قريبة جداً من قلبه وحواسه فترك النداء وناجاها كهذا مباشرة في أول قصيدته باسمها "بغداد" ثم أخذ يفرغ شحنة عاطفته نحوها بتلك "الياءات"، أو النداءات وما فيها من امتداد وارتفاع وسعة تضارع حبه الممتد العالي الرفيع لتلك البلد العريق، وفي نهاية ذلك الغزل إن صح هذا التعبير- يتوجه إليها بالرجاء والضراعة أن تفتح له ذراعيها مرة أخرى وتُنعم عليه بزيارتها ففي ذلك إحياء لمناه.

---

(١) الجارم في ضمير التاريخ للدكتور أحمد الجارم ص ١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٢) التغني بمجد "بغداد" القديم: (١٢- ٣٨)

هذا المجد الذي عدده الشاعر وأحصاه لأنه ليس مجداً واحداً، بل هناك المجد الأدبي، والمجد الحربي، والمجد العلمي، ولنلق نظرة على هذه الأمجاد:

أولاً: المجد الأدبي:

ويمثله خير تمثيل الشعر، ذلك الفن الأدبي العريق الذي كانت له الهيبة والسلطان وكانت له اليد العليا والنعمة الجلي في تسجيل أحداث ذلك العصر التليد عصر الدولة العباسية، وهارون الرشيد، ومجالس الأدب والشعر والشعراء التي تصور عظمة تلك الدولة التي كانت تخب في النعيم وترفل في الترف ويعتادها اللهو والمجون في كثير من مجالسها خاصة مجالس الأنس والشراب في قصور الملوك والأمراء.

أخذ الشاعر يتغنى من البيت ١٢- ٢٥ بمآثر "بغداد" السالفة:

١٢- بَغْدادُ يا دارَ النُّهَى ... وَالْفَنِّ يا بَيْتَ الْقَصِيدِ

١٣- بيتَ الْقَريضُ على ضِفا ... فيكِ بَيْنَ أفْنانِ الْوُرُودِ

١٤- تَرِقُّ الْمَدَلَّلُ مِنْ عِتا ... بٍ وَالتَّمَنُّعِ مِنْ وَحِيدِ

١٥- يَشْدُو كَأنَّ لَهاتِهُ ... شُدَّتْ عَلَى أوْتارِ عُودِ

١٦- بَغْدادُ أيْنَ الْبُحْتُرِيُّ ... وَابْنَ أيْنَ ابْنُ الْوَلِيدِ

١٧- ومَجالِسُ الشُّعَراءِ في ... بَيْتِ ابْنِ يَحْيَى وَالرَّشِيدِ

١٨- أيْنَ الْقِيانُ الضَّاحِكا ... تُ يَمِسْنَ في وَشْيِ الْبُرُودِ

١٩- السَّاحِراتُ الْفاتِنا ... تُ النُّجْلُ مِنْ هِيفٍ وَغِيدِ

٢٠- السَّاهِراتُ مَعَ النُّجُو ... مِ الآنِفاتُ مِنَ الْهُجُودِ

٢١- مِنْ كُلِّ بَيْضاءِ الطُّلَى ... مَهْضُومَةِ الْكَشْحَيْنِ رُودِ

٢٢- يَخْطِرْنَ حَتَّى تَعْجَبَ الْـ ... أغْصانُ مِنْ لِينِ الْقُدُودِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٣- وَإِذَا سَفَرْنَ فَأَيْنَ ضَوْ ... ءُ الشَّمْسِ مِنْ شَفَقِ الْخُدُودِ

٢٤- يَغْبُنَّ بِالأَيَّامِ وَالـ ... ـأَيَّامُ أَغْبَنُ مِنْ وَلِيدِ

٢٥- خَبَأَ الْجَمَالُ لَهُنَّ كَنْزاً ... بَيْنَ سَالِفَةٍ وَجِيدِ

لقد أخذ الشاعر يناديها عن قرب بقوله: "بغداد" لتلتفت إليه وتثني رقبتها محلفة وراءها قروناً طويلة وتتسمع من شاعرها المحب لها أهازيج رقيقة يذكّرها فيها بما كانت عليه إبان صحوة مجدها الأدبي فقد كانت مهبط الألباب، وملهمة الفن وبيت القصيد، ولم لا... فقد نبت القريض على الرافدين لطيب تربته وخصوبتها، وأينع وأزهر بين مجالس الأنس والترف فاستوي على سوقه يطرب السامعين... ويا له من قريض عجيب فريد فهو في دلاله يضارع "عنانا" جارية الناطفي تلك المغنية الرائعة الحسن الفاتنة الدلال بل يا ويله من قريض فقد سرق التدلل من تلك المغنية، فيالها من سرقة حلال... ويا ليته اكتفى بالسرقة مرة لكنه سرق ثانية وفي هذه المرة "سرق التفنن من وحيد "تلك المغنية التي اشتهرت في العصر العباسي بافتنانها في الغناء وكان ابن الرومي مولعاً بوصفها:

بَغْدَادُ يَا دَارَ النُّهَى ... وَالْفَنُّ يَا بَيْتَ الْقَصِيدِ

نبتَ الْقَرِيضُ عَلَى ضِفَا ... فِكِ بَيْنَ أَفْنَانِ الْوُرُودِ

سَرَقَ التَّدَلُّلَ مِنْ عِنَا ... نِ وَالتَّفَنُّنَ مِنْ وَحِيدِ

لقد أبدع الجارم في وصف ذلك القريض حين خلع عليه أفعال الآدميين من السرقة واللصوصية فالقريض إنسان مجرم سرق التدلل من "عنان" والتفنن من "وحيد"، فهل جرّمه "الجارم" هل أقام عليه حد السرقة... لا وما كان له ولا لنا ولا لأي متذوق لهذا البيت الجارمي الرائع أن يقيم الحد على القريض لأن مسروقاته تحل سرقتها لكل شاد في دوح الأدب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليغْني الشعر بها ويزداد روعة وبهاء ويصبح في شدوه كما يقول عنه الشاعر: "كأن لهاته شُدت على أوتار عود".

ثم التفت الشاعر لمحبوبته "بغداد" مرة ثانية يناديها متسائلا عن مظاهر الترف التي كانت ترفل فيها إبان عصر الدولة العباسية الزاهر حين كانت "بغداد" عاصمة الخلافة الإسلامية وكعبة الأدب بلا منازع يؤمها القاصي والداني من سدنة الأدب ومريديه وعشاق الأنس والطرب ومحبيه فقال لها: خبريني يا غاليتي أين ذلك الشاعر الطائي المطبوع- شاعر الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان- شاعر الدولة العباسية إبان مجدها... ذلك "البحتري"، بل أين صريع الغواني "مسلم بن الوليد"... ذلك الشاعر البديعي المفلق في عصر هارون الرشيد، أين مجالس الشعراء في قصور الأمراء والوزراء والخلفاء... في بيت الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك وأخوه جعفر اللذين كانا هما وأبوهما "يحيى" من وزراء الرشيد المقربين، وأين بيت هارون نفسه خامس خلفاء بني العباس الذي كان عصره عصر رخاء ونعيم ذهب التاريخ في وصف رخائه ونعيمه كل مذهب، وازدهرت بغداد في عصره وعظم شأنها في كل مناحي الحياة سيما الحياة الأدبية.

يسائل الشاعر "بغداد" وهي لن تجيبه بالطبع بل ولن يجيبه أحد فهو جد عليم بحضارة بغداد ومجدها القديم وازدهارها الأدبي، ويعلم علم اليقين أن ذلك كله قد اندثر وأصبح أثراً بعد عين بفعل سُنّة الحياة، فالأيام دول، والدهر يرفع ويخفض والكل إلى هلاك فكما يقول الشاعر القديم[1]: ألا كل شيء ما خلا الله باطل... وكل نعيم لا محالة زائل.

ولكن الشاعر في تساؤله هذا المتكرر يريد أن يقفنا على تلك

---

(١) لبيد بن ربيعة، شاعر جاهلي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحضارة الذاهبة بل وينقلنا تلك النقلة العظ[illegible] لنرى ذلك العصر الذهبي لبغداد رأي العين، فتراه [illegible] الضاحكات، الساحرات، الفاتنات، الساهرات، البيض الليدات الغدود، العابثات، الجميلات جمالاً منقطع النظير!!

ويسترسل في وصفهن بكل هذه الأوصاف البديعية الرقيقة [illegible] لنتعايش مع تلك الحضارة التي ولّت بمظاهرها من الترف والنعـ[illegible] ومجالس الأدب والغناء وكأننا نراها رأي العين في [illegible] والأشخاص من شعراء، ومجالس لهو وغناء وقيان [illegible] ما يخلب اللب، والشاعر لم يبالغ هنا في وجود مظاهر الحضارة هذه وإنما كانت المبالغة في وصف القيان الذي استغرق منه ثمانية أبيات (من ١٨-٢٥) تعج بالوصف الساحر للقيان اللائي كن يعبثن بتلك الأيام العابثة من زمن الرشيد، وهذا لون من ألوان المجد الأدبي التليد يعبر أصدق تعبير عن مآثر الأجداد.

ثانياً: المجد الحربي:

ينتقل الشاعر من مظاهر الترف والنعيم التي كانت تغرق فيها "بغداد" إبان عصرها الأدبي الزاهر إلى مظهر آخر من مظاهر المجد ألا وهو مظهر القوة والسلطان أي المجد الحربي فيتحدث عن الجيش الزاخر بالآساد، والبهو الفسيح الحافل بأسرى الحرب فالرسل تتلو الرسل من بيض صقالبة وسود، والجو يسطع بالسيوف والأرض تزخر بالجنود:

حَتَّى إِذَا رَجَعُوا بَدَا بِجِبَاهِهِمْ أَثَرُ السُّجُودِ

لقد قرأ الجارم الجارم التاريخ العربي المجيد ووعاه، بل حفظه عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظهر قلب فلما أختير ليمثل الكنانة في ذلك المحفل الطبي أخذ يجتر من ذاكرته الواعية ومن محفوظه الثمين ماضي هذه البلد العريق فنراه جد عليم بذلك المجد الحربي ومظاهره من تلك الكثرة الكاثرة من الجيوش العظيمة الفاتحة إلى ذلك النصر والفتح الذي حققته عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك إلى ذلك المُلك الوطيد المستتب الذي يعجز الخيال عن تصويره إلى جهود هؤلاء الجبارين الذين صنعوا الحضارة الإسلامية، وربما يقصد بتلك الجهود في قوله:

وجُهُودُ جَبَّارِينَ تَصْغُر دُونَهَا شُمُّ الْجُهُودِ

الحروب، تلك الحروب الإسلامية التي طوفت في الآفاق آنذاك شرقاً وغرباً لإعلاء كلمة الدين وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية، لذا نراه يتحدث عن المغانم والأسرى من الممالك الأوربية المجاورة للعراق من الصقالبة والسود، ويصور حالهم أبدع تصوير وهم أسرى يرسفون فيالقيد، مكبلين في حَلَق القيود يساقون إلى قصر الخليفة ببغداد (قصر الخلد) "يُعشى طرفهم وهج الحديد"، والجو مزدحم بالسيوف والرماح اللامعة المتلألأة كأنها النار الساطعة، والأرض- أرض المعركة وساحة الحرب- ممتلئة بالجنود، وكأن اليوم يوم الحشر، حتى إذا رجع هؤلاء "الجبارون" من ذلك الفتح المبين ظهر بجباههم أثر السجود دلالة الإيمان العميق وتشبع روحهم القتالية بالإسلام فهم رجال حرب صناديد في ساحة الوغي أما في ساعة السلم فهم أناس تراهم ركعاً سجداً، تتجافى جنوبهم عن المضاجع صلاحاً وتقوى فالناظر إليهم لا يخطئ أثر الإيمان العميق والصلاح في تلك العلامة أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السمة التي تظهر بجباههم مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[1]. ولا يخفى علينا تأثر الجارم ذي النزعة الدينية الشديدة بمحفوظه من القرآن الكريم ليرصع ذلك البيت الجميل بما تشير إليه هذه الآية الكريمة، وفي استعراض الجارم لهذا المجد الحربي القوي صورة ناصعة لتقييد مآثر الأجداد أيضاً.

ثالثاً: المجد العلمي:

المتمثل في تلك الفلسفات التي عرفتها بغداد آنذاك فقد انفتحت تلك العاصمة يومها على آفاق من الفكر جديدة عن طريق الترجمة من اللغات الأخرى كاليونانية والهندية وعن طريق نخبة من العلماء الأفذاذ الذين أعطوا في كل الميادين فلا يخفى علينا الحسن بن الهيثم، والبيروني، وأبو حيان التوحيدي... وغيرهم.

كل تلك النهضة الفكرية، والعلم يافع متألق بالعطاء في تلك الدولة بينما العلم في الشعوب الأخرى ما زال طفلاً لا يقوى على العطاء، فكان حرياً أن تقتل "بغداد" بتلك النهضة العلمية الفلسفية الخمود والركود والوهن الذي غالباً ما يعتري الأمم في عصر الظلمات وتدهور العلم، بينما الغرب ينظر إليها ببصر كليل حسير نتيجة ما كان يعتريه من ضعف وخمول، يعبر عن ذلك بقوله:

وَالْغَرْبُ يَنْظُرُ فِي خُمُودٍ نَحْوَ قَاتِلَةِ الْخُمُودِ

ولا غرو أن تصير بغداد كعبة القصاد من كل حدب وصوب في كل علم وفن، يهرع إليها المستجير بها من الجهل، ويأوى إليها الظامئ للعلم

---

(١) سورة الفتح آية: ٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتكون منهلاً عذباً طيب الشراب، ولم لا تكون كذلك وفيها أمثال شيخ العربية، صاحب النكتة البديعة والطرفة النادرة... "الجاحظ" "المرح اللعوب" وهو يغوص للدر الفريد في "البيان والتبيين" و"البخلاءط و"الحيوان"... إلى آخر تلك السلسلة من عطائه العبقري الفذ في تلك الحقبة من عمر بغداد:

كَمْ مَوْئِلٍ لِلْمُسْتَجِيرِ وَمَنْهَلٍ لِلْمُسْتَفِيدِ
وَ الْجَاحِظُ الْمَرِحُ اللَعُو بُ يَغُوصُ لِلدُّرِّ الْفَرِيدِ

ثم ختم الشاعر حديثه عن هذه الأمجاد الثلاثة بمخاطبة بغداد العريقة ذلك الخطاب الرقيق (من ٣٩- ٤٥) قائلاً لها: وكأنه يؤكد أنها جديرة بهذه الأمجاد- "يا وطن الأديب، وأيكة الشعر الغريد"، لقد جددت أحلامي بذكراك وأيقظتني من عهد بعيد، فصحوت أستعيد ماضيك وقد شط الخيال بي وأنا أذكر مجدك الغابر فما اطمأن ولا استقر ولا خلد إلى راحة بدا لبعد مرمى أمجادك وذكرياتك فَعَبَر القرون البعيدة ليفك أسرار تلك السنون التي طوتها يد الدهر، وعندما وقف على تلك الذكريات البعيدة أنَّ لها حسرة وندما لضياعها وذهابها، وحنَّ شوقاً وتلهفا لأن يعيش فيها ويكون ممن عاصروها، واهتاج غراما لطيف تلك الذكريات بل كاد يجن من فرط تحنانه وشوقه لأن يكون أحد شهودها، ولكن هيهات هيهات فقد توالت السنون وكرّت الأزمان، ولم تعد إلا الذكرى فما عليه اليوم إلا أن يركن إلى ظل حضارة الأجداد الفينان يرتمي في حمى ملكه العتيد ويتفيأ ظلاله غير آسف على ما مضى ممتعا ناظريه بمرآى حضارة وليدة كانت ترفل فيها بغداد في عصره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٣) استنهاض وبعث في الأبيات التالية من (٤٦- ٥٣) وهي:

٤٦- يَـا أُمَّـةَ الْعَـرَبِ ارْكُضِـي ... مِـلءَ الْعِنَـانِ وَلاَ تَهْـدِي
٤٧- سُـودِي فَآمَـالُ الْمُنَـى ... وَالْعَبْقَرِيَّـةُ أَنْ تَسُـودِي
٤٨- هَـذَا أَوَانُ الْعَـدْوِ لاَ الْـ ... ـإِبْطَـاءِ وَالْمَشْـيِ الْوَئِيـدِ
٤٩- الْمَجْـدُ أَنْ تَنْـوِي بِنَـا ... وَإِذَا وَثَبْـتِ فَـلاَ تَحِيـدِي
٥٠- وَتُحَلِّقِـي فَـوْقَ النُّجُـو ... مِ بِـلاَ شَـبِيهٍ أَوْ نَدِيـدِ
٥١- وَإِذَا شَـدَا الْكَـوْنُ الْمَفَـا ... خِـرَ كُنْـتِ عُنْـوَانَ النَّشِـيدِ
٥٢- لاَ تُخْطِئِـي حَـدَّ الْعُـلاَ ... مَـا لِلْمَعَـالِي مِـنْ حُـدُودِ
٥٣- مَـنْ يَصْـطَدِ النِمِـرَ الْوَثُـو ... بَ يَعِـفُّ عَـنْ صَـيْدِ الْفُهُـودِ

ففي هذه المقطوعة ينادي أمة اليوم أن تعيد مجد الأمس الذي ذكره وعدّده فهو العربي الغيور على مجد آبائه العرب،

يستنهض همة أمة اليوم ويدفعها دفعا إلى العُلا قائلاً لها في حماس وتوثب: أركضي ما شاء لك الركض في دنيا التقدم والتحضر ولا تركني إلى الخمود أو تضعفي أو تخافي، وسودي: أي كوني سيدة رائدة في الحياة بين حضارات العالم أجمع فتلك هي العبقرية الحقة وتلك هي الآمال التي يجب أن تمتطي، فاليوم يوم السباق والعدْو والتقدم لا التقهقر والنكوص والتعثر، فالمجد يدعو ذويه للصعود والثبات على القمة، وعليك أن تتصدري الركب وتكوني عنوان نشيد الفخر في سجل أناشيد الخلود، ولا تملّي من الصعود إلى العلا فما للمعالي من حدّ تقف عنده لأننا قد تعودنا منك أن تكوني في المقدمة بشهادة ماضيك العريق، فالحكمة تقول من تعوّد على صيد النمر الشرس يعف ويأنف من صيد الفهد الأقل شراسة، والذي اعتاد أن يكون في المقدمة يستنكف أن يكون في مرتبة تالية وتلك حكمة خالدة تعين على حفز العزائم وإثارة الهمم:

مَـنْ يَصْـطَدِ النِمِـرَ الْوَثُـو ... بَ يَعِـفُّ عَـنْ صَـيْدِ الْفُهُـودِ

(٤) بغداد الجديدة: (٥٤- ٥٧):

٥٤- هَـــذِي طَلَائِـــعُ نَهْضَـــةٍ ذَهَبَـــتْ بِآلَـــامِ الرُّكُـــودِ
٥٥- بَغْـــدَادُ أَشْـــرَقَ نَجْمُهَـــا وَبَـــدَا بِهَـــا سَـــعْدُ السُّـــعُودِ
٥٦- سَلَكَتْ إِلَـــى الْمَجْـــدِ الْقَـــدِيمِ مَحَجَّـــةَ الـــنَّهْجِ الـــجَدِيدِ
٥٧- وَزَهَـــتْ بِأَقْمَـــارِ الْهُـــدَى وَسَـــطَتْ بِأَفْـــذَاذِ الْأُسُـــودِ

هنا يفخر الجارم بوصفه شاعراً يعشق 'بغداد' بلد المجد والعروبة بطلائع تلك النهضة الحديثة التي أخذت بيد 'بغداد' من هوة الركود، فهو يبارك تلك النهضة الوليدة ويسعد بآثارها الطيبة التي انتشلت 'بغداد' من الكبوة التي كبتها منذ سقطت في يد التتار على يد ذلك السفاح الشرير "جنكيز خان" سنة ٦٥٦هـ فحق للجارم العربي الأصيل أن يفاخر بنهضة بغداد الحديثة التي جعلتها مشرقة، سعيدة، استمدت من ماضيها العريق نهج طريقها الجديد على يد علمائها الأجلاء، وقادتها وزعمائها الذين هدوها سبيل الرشاد، وجنودها الذين صالوا وجالوا في سبيل المجد، فحق لها أن تتيه وتفتخر على العالمين.

(٥) مظاهر الوحدة بين البلدين: مصر وبغداد (٥٨- ٦٦):

لما كان الجارم من اللاهجين بالوحدة العربية الداعين إلى شدة الحاجة إلى قيامها، المؤازرين لها الشادين بآثارها، نراه لذلك يحتفي بتصوير مظاهر هذه الوحدة في كثير من قصائده، يحتفي بتلك الوشائج التي تجمع أمة العرب في صعيد واحد فهناك وشيجة الجنس، ووشيجة اللغة، ووشيجة الدين لا فرق بين مسلم ومسيحي، ووشيجة الأرض... والعادات والتقاليد... الخ.

وهو هنا في "بغداد" يؤكد على أواصر الدم العربي في وحدة أساسها الجنس، كما يؤكد على أواصر الطبيعة الجغرافية التي عقدت صلة لا تنفصم عراها بين البلدين في وحدة أساسها الأرض، فما ذلك الشوق الأكيد الذي يناجي به الشاعر بغداد هو ومن معه من وفد مصرا لا تعبير عن تلك الوشائج القوية التي تجمع بين البلدين، وما تحية العلم والآداب من ذلك الوفد- وعلى رأسهم الشاعر- لذلك العدد العديد في الجمع الحاشد إلا تأصيلاً لتلك الوشائج وهذه الوحدة العربية التي هي أمنية الشاعر ومناه، لقد حرص الجارم كل الحرص على تصوير مظاهر الوحدة بين البلدين من تجاوب في المشاعر ومشاركة في الأفراح فقد صادف العقاد هذا المؤتمر الطبي ببغداد يوم وقفة عيد الأضحى (وقفة عرفة) فكان على "الجارم" أن يسجل تلك المصادفة الطيبة ويسعد بها ويتفاءل ويجعل من التقاء المناسبتين (زيارته لبغداد ووقفة عيد الأضحى المبارك) يوم عيد حقيقي جاد الزمان به عليه:

مَرْآكِ عِيدٌ لِلْمُنَى فُزْنَا بِهِ فِي يَوْمِ عِيدِ

كما تبدو مظاهر الوحدة أيضاً في الدم العربي الواحد أو رابطة الجنس فأهل العراق هم أهل "رشيد" موطن الشاعر، وأبناء العشيرة والجدود تضمهم أواصر واحدة فهم من جنس واحد لا فرق بين عراقي ومصري:

أَهْلُـــوكَ أَهْلُونَـــا وَأَبْنَـــاءُ الْعَشِـــيرَةِ وَالْجُـــدُودِ

ومن فرط حب الشاعر للمجد العربي والتغني بالعروبة عقد صلة بين النخيل في بغداد ونخيل أهله في "رشيد":

بَـــيْنَ الْقُلُـــوبِ تَشَـــوُّقٌ كَتَشَـــوُّقِ الصَـــبِّ الْعَمِيـــدِ

حَتَّـــى يَكَـــادَ يُحِـــبُّ نَخلَـــكِ نَخْـــلُ أَهْلِـــي فِي رَشِـــيدِ

ويا لها من صلة، إنها صلة الحب والغرام، صلة الود بين الجمادات دليل على أنها بين الأناسيّ أقوى وأعمق فامتدت إلى النخيل في كلتا البلدين وإلى الأنهار فقد تمازج الرافدان (دجلة والفرات) مع النيل السعيد في وحدة قوامها الحب:

الرَافِـــدَانِ تَمازَجَـــا فِي الْحُـــبِّ بِالنِّيـــلِ الســـعِيدِ

كما امتدت إلى الآثار فعانق "الطاق" وهو إيوان كسرى ببغداد الهرم الأكبر "هرم خوفو" بالجيزة:

وَتَعَـــانَقَ الظِـــلاَّنِ ظِـــلُّ الطَـــاقِ وَالْهَـــرَمِ الْمَشِـــيدِ

فيا لها من أواصر حميمة قل أن يجود بها الزمان في شعر آخر غير شعر عاشق العروبة "علي الجارم".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٦) وصف الرحلة: (٦٧- ٧٢):

في هذه الأبيات يصف الشاعر شوقه العارم- هو ومن معه- إلى محبوبته "بغداد" فنراهم يستبقون الخطا لوصلها ومشاهدة سحرها، وكم عاشو في سبيل هذا الوصل، فقد قطعوا الصحراء الممتدة البعيدة (بادية الشام) في رحلة مضنية على ظهر تلك السفينة "نرن":

وَسَفِينَتِي "نَرْنٌ" بِهَا مَا فِي فُؤَادِي مِنْ وُقُودِ

ونشتم في هذه الأبيات رائحة القصيدة العربية الجاهلية بما تحمله من ذلك النظام الذي وضعه لها منشؤوها القدامى خاصة ذلك الجزء الخاص بالرحلة التي كان يصفها الشاعر العربي الجاهلي بكل دقائقها، من راحلة تقلّه إلى الممدوح إلى صحراء شاسعة ومفازات بعيدة الغور يضل فيها الساري، إلى معاناة شديدة للراحلة والشاعر معا وكيف أنه يتحمل كل هذا الجهد المضني والسفر الذي يكون فعلا قطعة من العذاب حتى يحط راحلته عند باب الممدوح، عندئذ يلقي الراحة والأطمئنان، بل يجد الكرم والعطاء فيبذل كل ما في وسعه ليخلع على الممدوح حللا من المدائح سواء أكانت في الممدوح حقا أم لم تكن فيهز

والجارم الذي استقى من معين أسلافه القدامى، ونهل وعلَّ من مشربهم، ووعى وحفظ آثارهم، وتتلمذ بكل الجد والاجتهاد عليهم لا يجد غضاضة في السير على منوالهم، فهو يصف رحلته إلى العراق كما كان يصف أسلافه رحلاتهم إلى ممدوحيهم فهو قد عانى من تلك الرحلة لأنه كان يستبق الخطى هو ومن معه من وفد مصر إلى ارض الرافدين حيث عاصمة الرشيد فأصابهم التعب والهزال من جرّاء السير في تلك الأودية والقفار الموحشة، ولشدة عنائهم تخيل الشاعر أن الصحراء ممتدة لا أول

لها ولا آخر بينما شوقه عارم "لبغداد" يود أن يصل إليها ما بين طرفة عين وانتباهتها فهو "يستبق الخطى" وكأنه في عجلة من أمره يريد الوصول إلى محبوبة يهواها، لذا أوحت له عاطفته المتقدة بالحب والشوق نحو بغداد إلى اجتلاب ذلك التشبيه الرائع الذي خلعه على "المرمى المديد"- وهو كناية عن اتساع الصحراء، وبعد مرماها بل وامتدادها اللانهائي-، فقد شبّه هذا المرمى البعيد في الصحراء وهو يسلمهم إلى مرمى آخر بوعد الحسناء التي تماطل محبوبها فلا تفي بذلك الوعد بل وتتخلص منه بوعد آخر وهكذا لا تكاد أبدا تفي بالوعود فهي تتخلص من ذلك الوعد الأول بوعد ثان... وثالث... وهذا فيه ما فيه من مكابدة الشوق ومعاناة الحرمان إلى أن يتم الوصل فيسعد المحب بقرب اللقاء:

يَتَخَلَّصُ الْمَرْمَى الْمَدِيدُ بِهَا إِلَى مَرْمَى مَدِيدِ
كَتَخَلُّصِ الْحَسْنَاءِ مِنْ وَعْدٍ طَوَتْهُ إِلَى وُعُودِ

ثم يصور الصحراء في تراميها ببحر بلا شطين فهي مثل البحر في الاتساع والعظمة وربما رأى الشاعر "السراب" في الصحراء فأوحت له تلك الظاهرة التي كثيراً ما يراها السائر في الصحراء الحارقة حين يشتد عطشه، فلعل الجارم قد رأى ذلك رأي العين فتصور الصحراء بحراً ولكنه بحر بلا ماء وبلا شطين بل يزخر بالمفازات الواسعة الأطراف التي لا ماء فيها ولا أنيس ويمتلئ بالمرتفعات، وقد قطع الشاعر هذه الصحراء العظيمة ويقصد بها بادية الشام في شمال الجزيرة العربية على ظهر تلك السيارة التي تسمي "نرن" تلك التي تسير بالوقود المحترق الذي يضارع ما في فؤاده من وقود الشوق واللهيب إلى بغداد.

والجارم في سيره على نمط القصيدة الجاهلية في تقسيمها إلى مقدمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طليلة أو غزلية، ثم وصف للرحلة ثم يأتي إلى غرضه الأصلي إن كان مدحاً- وهو كذلك في الغالب- أم هجاء أم رثاء... إلى آخر تلك الأغراض الشعرية لا يعاب في ذلك لأنه أحد أعلام الاتجاه البياني المحافظ الذين ساروا على نمط القدماء ولكن بروحهم هم ومضامينهم الجديدة وعقولهم المتفتحة التي استوعبت مستحدثات عصرهم، ولكن الذي نأخذه عليه ذلك المديح الذي انقاد فهي على أثر السابقين انقيادا أفقد مديحه الصدق، وربما يكون ذلك من سمات عصر الشاعر أو اعترافا بفضل مَنْ بَعثه وهو ملك مصر آنذاك "فاروق"، أو تبجيلاً وتعظيماً لمن حلّ بديارهم مثل الملك "غازي"، ولكنا الآن لسنا بصدد مناقشة مدائح الجارم كلها وكثرتها والنمط الذي كانت عليه فتلك قضية جديرة بإفراد صفحات لها في غير هذا المقام.

ولكنا أمام ذلك المديح الذي ختم به الشاعر رائعته "بغداد" واستغرق منه سبعة أبيات (٧٣- ٧٩) في تمجيد الملك "غازي" ملك العراق سليل العرب والحسب المجيد والذي يختال الشاعر ويزهو بين هباته في ظل إحسانه وكرمه ذلك الملك الذي أحيا المنى بعزمه وحزمه وسداد رأيه، وسعيه الحميد في الخير، هذا الملك الذي ألّف القلوب ووحّد للمشارب في ساحات العروبة فصارت منهلا عذبا لمن يريد أن ينضم تحت لوائها فكأنه راعي تلك القومية العربية التي هي أيضاً مأرب الشاعر ومناه: جئنا إلى الغازي

جِئْنَا إِلَى الْغَازِي سَلِيلِ ... الْعُرْبِ وَالْحَسَبِ الْمَجِيدِ
نَخْتَالُ بَيْنَ هِبَاتِهِ ... فِي ظِلِّ إِحْسَانٍ وَجُودِ
وَغَدَتْ بِهِ سُوحُ الْعُرو ... بَةِ مَنْهَلاً عَذْبَ الْوُرُودِ

ولم يفت الشاعر في مديحه هذا أن يلتفت إلى مصر وطنه ممثلا في مليكه آنذاك "فاروق" فيثني عليه ويمجّده ويخلع عليه عدة ألقاب مجيدة فهو

"منبثق الرجاء"، و"ملتقي الركن الشديد" وصاحب "نهضة" نسبها الشاعر إليه- ولا ندري أية نهضة تلك التي قامت على يد "فاروق" وقد كان في عهده ما كان مما يندي له جبين التاريخ. ربما كان "للغازي" في العراق نهضة بدليل أن الجارم أشار إليها في قوله: "هذي طلائه ذهبت بآثار الركود" فيكون محقا بأن يجعل للغازي "نهضة" أما أن يقرن "فاروق" معه في تلك النهضة فيقول:

فِي نَهْضَةِ الْفَارُوقِ والْغَازي غِنىً لِلْمُسْتَزِيدِ

فليس محقا في ذلك بل جانبه الصواب، وكونه يخلع على "فاروق" تلك الألقاب الفخمة العظيمة، والتاريخ يعلم من هو "فاروق" فقد تحيّف الحق وَبَعُدَ عن الصواب أيضا.

أما ذلك البيت الأخير الذي ختم به تلك القصيدة العصماء وهو قوله:

عَاشَا وَعَاشَ الشَرْقُ في عِزٍ وَفي عَيْشٍ رَغِيدِ

فهو بيت يصلح في عامة الناس ويقوله عامة الناس فهو خلو من البديع بل عليه مسحة من التكلف فالدعاء مطلوب لكل الناس بأن يحيو في سلام وأمان وعيش رغيد حتى وإن كانوا فاسقين فالدعاء لهم بالهداية حق وواجب، والدعاء من المسلم لأخيه المسلم لا غبار عليه، ولكن الذي يشفع للشاعر أنه بعد أن قرن الدعاء بالعزة والعيش الرغيد لمليك مصر- وهي وطنه- بالدعاء لمليك العراق وفيها مجده أيضا لأنه عربي قرنهما بدعائه للشرق، وتلك ميزة تميز بها الجارم الإنسان ذو العاطفة الجياشة التي تعبرُ حدود الزمان والمكان، حدود الفرد والأفراد فعاطفته تشمل أمة بأسرها، تجيش وتفيض لأجل الشرق كله فتدعو له بالعز والعيش الرغيد، وكونه قرن دعاءه لهذين المليكين بدعائه للشرق فهذا في حد ذاته تعظيم لهما وهبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يخلعها شاعر العروبة عليهما وهو بسبيله لمديحهما والاعتراف بفضلهما وإن كنا نلمس المبالغة والمديح المتكلف في هذه الأبيات كما أشرنا آنفا.

إذن هي خاتمة تقليدية ربما فرضتها على الشاعر عدة أسباب:

الأول: طبيعته الشعرية وطريقته في النظم وانتماؤه لمدرسة في الشعر جعلته لا يستطيع أن يتخلص من ثقافته العربية القحة فقد تتلمذ على المتنبي والبحتري أعلام العصر العباسي في البيان كما تتلمذ على شوقي شاعر العصر الحديث، وقبل هؤلاء تتلمذ للموروث من أدب الجاهليين القدماء، فكان عسيراً عليه أن يفك شعره من هذا الإسار القديم ولا نعيب عليه ذلك لأنه إذا كان قد صاغ أو نسج على غرار القدماء فإن تلك الصياغة وذلك النسج جاء بروح عصره هو وطريقته هو، تلك الطريقة الجارمية أو "الدرعمية" كما قال عنها العقاد، ولأنه أيضا "قد حدد رسالته الأدبية عن عمد مقصود، وهي الرجوع بالشعر العربي إلى أزهر عهوده الأولى في عصر بني العباس، والشاعر عالم باحث متمكن درس التراث الأدبي دراسة الناقد البصير، ورأى فيه مهوى فؤاده، ومنار إعجابه فأيقن أن احتذاءه مد متصل لتيار يجب أن يفيض ويزخر، ما بقيت العربية تتردد على أفواه، ولا يعني بالاحتذاء محاكاة شكلية تنقل عن الأصل دون إحساس صادق، بل يعني تسطير عواطفه في نهج عربي أصيل، لأن الشعر في رأيه ميدان يتسابق فيه فرسان البيان ولكل فارس حلبته الفسيحة وجواده السابق يوم الرهان"[1].

هذا التأثر بتقاليد السابقين لم يكن في هذا الختام فقط بل احتذاه"الجارم" في بدئه قصيدته أيضا إذ بدأها بما يشبه الغزل أو النسيب عندهم، ولكنه يعتبر مجددا فيه، فلم يقف على الطلل الماحل أو يُتيّم في هوى "هند" أو

---

(١) الجارم في ضمير التاريخ ص ٣٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"دعد" أو "زينب" ولكنه تغزل في هوى "بغداد" محبوبته التي تحمل أمجاد أجداده، فظل يناديها ويناجيها ويطيل النداء والمناجاة عبر تلك الصحراء الشاسعة إلى أن حط رحاله بقربها فاسبغ عليها وعلى أهلها ما شاء له من هبات شعره ومدائحه.

كما ظهر التأثر بالأقدمين في نسجه لتلك البيات التي تصور رحلته إلى "بغداد" عبر تلك الفيافي والقفار الممتدة التي لا تُنال إلا بشق الأنفس كوعد الحسناء الذي لا ينجز أبدا، على تلك الراحلة (السيارة نرن) التي جعلها سفينة تجوب عباب رمال صحراء الشام العظيمة، هذا التصوير يشبه تماماً ما كان يصور به العربي رحلته الشاقة قبل أن يصل إلى الممدوح.

وهكذا صار نسيج قصيدة "بغداد" للجارم يكاد يشبه نسيج القصيدة العربية الجاهلية التي كانت تبدأ بمقدمة غزلية أو طللية ثم وصف الرحلة ثم المديح أو غرض الشاعر الأصلي من القصيدة، وكثيراً ما كان الغرض الأصلي هو المديح لنيل العطاء فالشاعر العربي القديم لم يستنكف أن يتكسب بشعره لظروف فرضتها عليه طبيعة عصره وبيئته، أما الجارم فعلى الرغم من أنه ختم قصيدته بالمديح الذي أتى بعد الرحلة فأوحى لنا أنه يسير على عادة أسلافه إلا أننا لا نستطيع أن نقول إنه مدح من أجل العطاء كعادتهم بيد أنه كاد أن يوقع نفسه في مظنة ذلك عندما غالى في مدح "الغازي" بتلك الصفات العظيمة مثل كرمه وجوده فقال:

نَخْتَالُ بَيْنَ هِبَاتِهِ فِي ظِلِّ إِحْسَانٍ وَجُودِ

فقد جاءت المغالاة من هذه الألفاظ "هباته"، "ظل" "إحسان" فهي توحي "باليد العليا"، و"التفضل"، و"المنح" "ناهيك عن الجود"، فكأن الشاعر ومن معه كانوا يتفيأون ظلال كرم هذا "الغازي"، ويختالون بين هباته وإحساناته

وعطفاه، وقد أصبحا [illegible]

الجازم- كما جاء في [illegible]

بالشعر" بدليل قوله هو [illegible]

الداء:

قد قتلت كل [illegible]

وقد حفل العوالي سبحانه وتعالى به [illegible]

نفسه لصوغ مدائح لقاء كسب مادي [illegible]

والعلمية بكفاءته المشهودة من الجميع [illegible]

يتقع مادي أو أدبي في حياته كما [illegible]

الممدوح إلى أشرف المثل، وإذا تأمل [illegible]

تدل على كرم الممدوح فقد جاءت [illegible]

الثاني: وهو خاص بتدبيجه للقاريء [illegible]

تمجيد الزعماء وعلية القوم الذين [illegible]

فضائل ذاعت واشتهرت ووجدت [illegible]

أمير الشعراء، وشاعر العصر الحديث [illegible]

القصر لتلك المدائح الكثيرة التي [illegible]

مصر المحفلي والرسمي بعد "شوقي" [illegible]

المكانة التي تبوأها- أن يوفي ملك [illegible]

الألقاب التي تتناسب مع مكانته [illegible]

السلبية فجعل له "نهضة" عظيمة في [illegible]

الركن الشديد" كأنه موكل بالمهام [illegible]

مصر وعلو شأنها، والحفاظ على [illegible]

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الركن الذي يأوي إليه كل ملهوف ومحتاج!! وهذا بالطبع ما ينافي الواقع في تلك الحقبة من تاريخ مصر، ولذا نرى "الجارم" وكأنه دُفع دفعاً لمديح "فاروق" لأنه الملك يومئذ، وهو الذي عيّنه في المجمع اللغوي بمرسوم ملكي، وهو الذي بفضله يُوفَد "الجارم" ممثلاً للكنانة في البلاد العربية، وهو الذي خلع عليه وسام النيل عام ١٩١٩م، وربما من هذا المنطلق نستطيع أن نلمتس العذر للشاعر في مديحه لهذا "الفاروق" من باب العرفان بالجميل وقد كان الجارم أوفى الناس وأعرفهم للفضل وأحفظهم للنعمة نرى ذلك في مراثيه للزعماء والوزراء والأدباء من أصدقائه وذلك من شيم الكرام، وهذا ما أشار إليه الأستاذ الدكتور محمد رجب بيومي حين قال: "كان الشعر في مطلع هذا القرن ترجمان الأحداث، ولسان الوقائع الاجتماعية والسياسية فما ينشا أمر ذو شأن في مصر حتى ترى الجرائد اليومية تفسح للشعر مكانا مرموقا بحيث تكون المقالة السياسية جوار القصيدة الأدبية في صفحة واحدة، وبحيث ينتظر القارئ صيحة الشعر أكثر مما ينتظر تحليل النثر، لذلك كان الشعراء أولى صلة وثيقة بزعماء النهضة الاجتماعية والسياسية والدينية... وإذا كان أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد الكاشف قد ترجموا أحداث زمانهم، فإن الجارم قد جرى معهم بعض الشوط في مطلع حياته الأدبية لأنه لم يكن متفرغاً للشعر كما تفرغوا له، بل كان له مجاله العلمي والتربوي تأليفاً وتحقيقاً وتوجيهاً، ولكنه مع ذلك صاحب زعماء العصر، ونابهي المتقدمين من رجاله، وأدلى بدلوه مع الأحداث، وعرف للفاضلين فضلهم فوفاهم حقهم مديحاً ورثاء[١].

---

(١) الجارم في ضمير التاريخ ص ٣٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرات في التحليل الفني للقصيدة

لا يمكن أن يقف المرء على أسرار الجمال في النص الأدبي ويشحذ ملكة التذوق الفني لديه، ويسبر أغوار الفتنة والمتعة بمجرد الوقوف على المعنى، ومعرفة ما تدل عليه الكلمة، فتلك نظرة سطحية، وإدراك قريب المنال لا غناء لمتذوق الأدب من ورائه، ولا لدارس منه، ومن ثم فلابد من التحليل الفني للنص الأدبي، ذلك التحليل العميق الذي يتغلغل داخل النص، ويسبر أغواره، ويتعمق بواطنه حينئذ يبرز له العمل الأدبي أو النص الأدبي (القصيدة) بعد التغلغل والسبر والتعمق مجلوا مكشوفاً بل ومتبرجاً في أبهى زينة يسبي العقول ويخطف الأبصار، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تحليل القصيدة من عدة نواح: من ناحية بنائها اللغوي، ومن ناحية صورها الفنية وأخيراً من ناحية قيمها الصوتية المتمثلة في تلك الموسيقى التي تنساب في ثنايا القصيدة، وها هو التحليل لقصيدة "بغداد".

أولاً: من ناحية البناء اللغوي

والبناء اللغوي: هو تلك المكونات اللغوية التي تتضافر في حمل المعنى وتصوير الفكرة، وهو أيضاً تلك الوسائل اللغوية التي يوظفها الأديب توظيفاً فنياً يقوم عليه هيكل القصيدة أو العمل الأدبي فيبدو الجمال من تلاحم هذه الوسائل مع المحتوى.

هذه المكونات وتلك الوسائل تتمثل في: الألفاظ، والتراكيب، والأساليب.

(١) الألفاظ:

تختلف لغة الشعر عن لغة الكلام العادي الذي يدور في أحاديث الناس ومجالسهم ومن هنا كانت لغة الشعر نمطا خاصا على المستوى اللفظي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتركيبي، لأن الشعر يسكب في اللغة روحا جديدة، ويبعث في أوصالها سرا دفينا ينبض بصور شتى من العطاء، وتلك مهمة الشاعر حين يضع الكلمة في ذلك النسق التعبيري ويؤثر بها، ولنتأمل ذلك في ألفاظ "الجارم" التي نسج منها قصيدة "بغداد" لنكشف عن تلك السمات التي لا نلقاها إلا في لغة الشاعر خاصة، سيما وأنه يملك ناحية اللغة.

ونجمل هذه السمات في: الدقة التعبيرية، والإيحاء، والشاعرية والتصويرية، وأخيرا الدلالة الصوتية المتمثلة في جرس الألفاظ وإيقاعاتها الموسيقية، إلى جانب ذلك لابد من فصاحة الألفاظ تلك الفصاحة التي لا تتأتى إلا بشروط وضعها البلاغيون لها، يقول الخطيب القزويني في شروط فصاحة اللفظ: "خلوصة من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس اللغوي".

أ- الدقة التعبيرية:

وهي إصابة المتكلم في اختيار الكلمات التي تكون نصا في المعنى، وبتعبير آخر هي: إصابة المعنى الذي ساق الشاعر اللفظ من أجله في إطار السياق التركيبي فليس المراد بالدقة التعبيرية هنا: إصابة المعنى المعجمي فهذا خطأ بيّن في لغة الشعر خاصة وتتحقق الدقة التعبيرية حين يتطابق الدال على المدلول فالألفاظ لها صورتين- كما في تقسيم عالم اللغة السويسري "سوسيور" صورة سمعية هي اللفظ نفسه (الدال) وصورة ذهنية هي (المدلول) عليه باللفظ.

والمتأمل لقصيدة "بغداد" للشاعر الجارم يرى أنه كان حريصا على أن يضع ألفاظه في مواضعها، بحيث تتطابق أو تتلاحم دلالة اللفظ مع السياق، فلا يقصر اللفظ عن أداء المعنى المراد، ولا تتسع دلالة اللفظ أو تترهل في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إطار السياق وتحت تأثير عاطفة الشاعر. فعندما يقول مخاطباً "بغداد":

يَـــا بِنْـــتَ دِجْلَـــةَ قَـــدْ ظَمِئْـــتُ لِرَشْـــفِ مَبْســـمِكِ البَـــرُودِ

فهو يصفها بالعطاء والريّ والحنان حين جعلها "بنت دجلة" فـ"دجلة" هي ذلك النهر العظيم الفياض، والشاعر من فيض شوقه لبغداد يسوؤه أن يرشف مبسمها البارد الطيب ليروي ظمأ شوقه إليها، وطالما هو ظمآن بالشوق والحنين لها فلا يطفئ غلة ظمئه بالطبع إلا الماء، وأي ماء في بغداد غير ماء دجلة العذب البرود، فجاءت ألفاظ "الظمأ" و"الرشف" و"المبسم" و"البرود" مطابقة ومناسبة لقوله "يا بنت دجلة"، وكلها ألفاظ خيرة في السياق التعبيري.

وفي موضع آخر يقول:

يَـــا زَهْـــرَةَ الصَـــحْراءِ رُدِّ ي بَهْجَـــةَ الـــدُنيا وزِيـــنِي

فكيف تنبت الزهرة في الصحراء؟ إنها حين تنبت في ذلك المناخ الذي لا يلائم نمو الزهور فتكون بذلك زهرة متفردة... زهرة كفيلة بأن تعيد للدنيا بهجتها ورونقها وزيادة من هنا كانت المواءمة بين قول الشاعر أن "بغداد" زهرة الصحراء وبين قوله: ردي بهجة الدنيا، لأنه طالما خلع عليها ذلك الوصف الفريد فهي بلا شك قادرة على أن تعيد البهجة والرونق والإشراق للدنيا، بل تزيد على ذلك، لأن الزهرة من شأنها بعث البهجة والإشراق في النفس، وبذلك تصبح ألفاظ: "زهرة"، و"بهجة" فيها تلاؤم وتوافق مع السياق أفصح عن قدرة الشاعر وتوفيقه في اختيار ألفاظه وذلك من الدقة التعبيرية.

من تلك الدقة أيضاً استخدام الشاعر لكلمات ذات دلالة لغوية محددة لا يغني غيرها عنها في السياق من ذلك قوله وهو يخاطب "بغداد" وأنها منبت

القريض:

نبتَ الْقَرِيضُ عَلَى ضَفَا فِكِ بَيْنَ أَفْنَانِ الْوُرُودِ

فعندما ينبت القريض لابد وأن يحتاج إلى التربة الصالحة والماء الوفير، ولن يتأتى له الازدهار ولن تتم عملية الإنبات والترعرع له إلا في تلك البيئة الخاصة التي لابد من توافر الماء والخصوبة فيها، وليس أجمل وأصلح من الضفاف تلك التي تكون مشبعة بالماء والهواء النقي والتربة الصالحة فينبت القريض على تلك الضفاف مزهراً ريانا، ثم إنه قال: "بين أفنان الورود" ليلائم مرة أخرى بين عملية الإنبات وكونها موجودة في بيئة فينانة بالورود والزروع دليل على أن تلك التربة خصبة ومكتظة بالزروع فكان جديراً بالقريض أن ينبت ويزدهر في تلك التربة، فهناك إذاً مواءمة بين اختيار تلك الألفاظ "نبت" و"ضفافك"، و"أفنان"، و"الورود" وكلها مناسبة للسياق تخدم غرض الشاعر، ولم يكن يصلح لكلمة "نبت" التي تدل على نشأة الشعر في بغداد سوى ألفاظ "ضفافك" و"أفنان" و"الورود" دليل على دقة الشاعر في اختيار ألفاظه.

وهناك دقة تعبيرية أخرى في قول الشاعر:

كَمْ جَاشَ جَيْشُكَ بِالْفَوَا رِسِ مِنْ أَسَاوِرَةٍ وَصِيدِ

فلفظة "جاش" لا تغني لفظة أبدا عنها في هذا المقام مقام تصوير مجد بغداد الحربي متمثلاً في تلك الجيوش الجائشة بتلك الفوارس من القواد البارعين في المرمى بالسهام ومن الملوك الصائلين في حومة كالآساد، فنجد أن اختيار لفظ "جاش" جاء موائما للفظة "الجيوش"، وعبارة "جاش جيشك" ملائمة تماماً للسياق، فالوقت وقت حرب فيه أساورة وصيد، والمقام مقام تعداد مجد حربي عريق فناسبه جيشان الجيش وفورانه وتلك الجلبة والضجة التي تحدث حين يحمي وطيس المعركة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ب- الإيحاء:

وينشأ إيحاء اللغة من اتساع الصورة الذهنية للفظ، أي اتساع (المدلول) وامتداد ظلاله، محملة بما اكتسبه اللفظ من إشعاعات ودلالات نتيجة الاستعمال المتعاقب له وما اكتنف ذلك من تجارب وأحداث، حتى أصبح اللفظ محملا بطاقات متعددة من الدلالات والصور الدلالية الأولية والثانوية الكامنة في تضاعيفه فتصبح للفظ دلالتان:

دلالة مركزية: هي المعنى المعجمي له.

ودلالة هامشية: هي هذه الإيحاءات التي يشع بها اللفظ[1].

فالإيحاء من السمات البارزة في لغة الشعر، تعطيه حيوية ومرونة وتجدداً وعطاء، ومع كل قراءة جديدة تتفتق إيحاءات جديدة وها هي نماذج من قصيدة "بغداد" للجارم محملة بتلك الإيحاءات، منها قوله في مناجاة بغداد:

يَـــا بَسْـــمةً لَمَّـــا تَـــزَلْ زَهْـــرَاءَ في ثَغْـــرِ الْخُلُـــودِ

فهو يصفها بأنها بسمة ما تزال مشرقة في الخلود، فالبسمة توحي بالسعادة والتفاؤل فوصفها بأنها زهراء متفتحة غير ذابلة أو باهتة أو مكتئبة، ومحل البسمة الثغر أو الفم، فجعل للخلود والزمن السرمدي فماً وما زالت تلك البسمة المتفائلة مرسومة عليه رغم مرور تلك السنون، فكلمة "بسمة" ووصفها بأنها "زهراء" توحي بالتفاؤل والإشراق، والعبق لبغداد، وكلمة "لما تزل" توحي بالاستمرارية والامتداد وعدم الانقطاع، وكل ذلك يوحي بأصالة بغداد وبقائها على الزمن مشرقة متألقة رغم ما اعتراها من

---

(١) راجع دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس، ص ٨٢.

المحن على مر التاريخ.

وقوله في وصف القيان الضاحكات، الساحرات، الفاتنات، الساهرات... في مجالس الأنس والطرب ايام مجد بغداد الأدبي:

يَخطِرْنَ حَتَّى تَعْجَبَ الْـ أَغْصَانُ مِنْ لِينِ الْقُدُودِ

فالتعبير بالفعل "يخطرن" وما فيه من المشي في دلال ورقة يوحي بالأنوثة أو قد تشع منه الأنوثة في تمايلها ودلالها حينئذ تعجب الأغصان نفسها وهي التي تأخذ منها الآنسات التثني والدلال، هذه الأغصان تعجب من تمايل تلك القيان لخفة أجسامهن ولين قدودهن فذلك يساعدهن على التثني والدلال اللذين توحي بهما كلمة "يخطرن"، فذلك الفعل يحمل إيحاءات لا تنفذ أبدا.

وفي قوله أيضاً:

شَطَّتْ مَنَازِلُنَا وَمَا احْتَاجَ الْفُؤَادَ إِلَى بَرِيدِ

وذلك الفعل "شطت" وما فيه من إيحاء يشير إلى الإمعان، يقصد أن يقول رغم بعد الشُقة والمسافات الطويلة التي تفصل بين مصر وبغداد إلا أنه رغم ذلك البعد ما احتاج الفؤاد المشوق لك يا بغداد إلى بريد ليصل تلك المسافات بين مصر وبينك، "فشط" توحي بالبعد البعيد الذي يحتاج إلى بريد، وما حاجة الشاعر إلى البريد إلا لأنه مشتاق إلى الوصل والمجيء وكلمة "البريد" جاءت معبرة في ذلك المقام لأنها حلقة الوصل الطبيعية بين الناس بعضهم البعض، فكأن "بغداد" هنا محبوبة من الأناسيّ يهواها الشاعر ويود وصلها ولكن يحول دون ذلك المسافات الطويلة ولشوق الشاعر وحبه لها ولأنها ساكنة في فؤاده دائما لم يعد فؤاده محتاجاً إلى ذلك البريد المعتاد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الناس.

وفي قوله أيضاً في وصف القيان:

يَعْبَثْنَ بِالأَيَّامِ وَالْـ ... أَيَّامُ أَعْبَثُ مِنْ وَلِيدِ

فالفعل "يعبثن" وما يوحي به من الفوضى والتبعثر وكأن هاتيك القيان المستهترات يعثن فساداً في الأيام، ولن يستطعن أن يعثن فساداً في أيام محترمة على خلق ولكنهن يعثن فساداً في أيام فاسدة هي الأخرى لاهية مستهترة، كل ذلك يوحي بمدى اللهو والترف والانغماس في الملذات في تلك الأيام الرشيدية العباسية العابثة.

جـ- الشاعرية:

أي أن تكون الألفاظ جزلة فخمة حين يحلق المعنى في آفاق الجزالة والفخامة، وأن تكون رقيقة سلسلة حين يتهادى المعنى في بساتين الرقة ويختال في برود السلاسة وبهذا لا تكون مبتذلة أو سوقية، والجزالة والفخامة والرقة والسلاسة إحدى سمات لغة الشعر- ولكن يا ترى هل هناك ألفاظ شعرية وألفاظ غير شعرية؟.

يقول الدكتور محمد حسن عبد الله "قد يماري البعض في وجود ألفاظ شعرية وغير شعرية، وقد نكون مع هؤلاء من حيث ننكر أن يكون اللفظ معزولاً عن سياقه قابلاً للحكم له أو عليه، إذ يرتبط اللفظ بوظيفته وموقعه، ولا وظيفة أو موقع في عزلة عن المعنى، ومع هذا فإننا نحترم تفرقة القدماء بين نوعين من الألفاظ، حتى قالوا: القلب والفؤاد والكبد والسحر والنحر والجيد والترائب والصدر والثغر والثنايا والريق- من ألفاظ الشعر، بخلاف: المخ والحلق والأضراس والأسنان والمعدة والبطن والأمعاء والطحال فكما ترى فإنها جميعا ليس فيها ما يكره من ناحية التركيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصوتي وهي متقاربة المعنى، ودلالتها جميعا حسية، فكيف فرق الذوق بينهما...؟ أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى تاريخ الكلمة وتقابلها في الاستعمال واعتيادها القدوم إلينا في صحبة من الألفاظ ذات المعاني التي تغمرها باللون والرائحة والهيئة"(١).

من هذا المنطلق نستطيع أن نحكم على ألفاظ الجارم من حيث شاعريتها في قصيدته "بغداد" فهناك ألفاظ ليست بشاعرية ولكنها استمدت شاعريتها من قدومها في صحبة من الألفاظ ذات المعاني التي غمرتها باللون والرائحة والهيئة- كما يقول الدكتور محمد حسن، منها قوله:

يَا بُهْرَةَ الْمُلْكِ الْفَسِيحِ وَصَخْرَةَ الْمُلْكِ الْوَطِيدِ

فلفظة "صخرة" ليست شاعرية في ذاتها فهي تدل على الجمود والتحجر والصلادة، لا حياة فيها ولا روح ولا حيوية، ولكنها حينما وضعت في سياق جيد عبرت أدق تعبير عما يريد الشاعر فالملك الوطيد الراسخ المتأبي على الدهر تناسبه لفظة "صخرة" لتشير إلى ثباته وتمكنه.

وللنظر إلى قول الشاعر في وصف القريض الذي نبت علي ضفاف بغداد:

يَشْدُو كَأَنَّ لَهَاتَهُ شُدَّتْ عَلَى أَوْتَارِ عُودِ

فلفظة "اللهاة" وكونها "شدت" يعطي منظرا بشعا منفرا فظا، ولكن عندما جعلها الشاعر تشد على أوتار عود أوحت بالرقة والعذوبة لأننا ننتظر عندئذ من اللهاة أن تغني وتشدو وتسجع بأعذب الألحان وتمحي ذلك التخيل المقزز الذي ينبعث من مرأى اللهاة المشدودة شدا.

وقول الشاعر أيضاً في وصف القيان:

---

(١) اللغة الفنية د. محمد حسن عبد الله ص ١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مِـــنْ كُـــلِّ بَيْضَـــاءِ الطلَـــى مَهْضُـــومَةِ الْكَشْـــحَيْنِ رُودِ

فلفظة "مهضومة" تلك اللفظة العلمية التي يتبادر إلى الذهن عند مرآها أو سماعها عملية الهضم، هضم الطعام وما تفرزه المعدة مـن عصـارات وأنزيمات وحركة المعدة في انقباض وانبساط حتى تتم عملية الهضم، وذلك الخليط من الطعام الذي يهضم.. إلى آخر تلك السلسلة التي تمر بها عمليـة الهضم في الجهاز الهضمي.. كل ذلك يتراءى لنا من تلك اللفظـة، ولكـن عندما قال الشاعر "مهضومة الكشحين" بَعُد الذهن عن عملية الهضم تلـك وأصبحنا نرى قيانا رقيقات الخصر هيف لضمور بطونهن ودقة خصورهن لأنهن ليست بهن تخمة من طعام أو سمنة في منطقة الكشـح، وقـد ازداد المعنى جمالا بإضافة الشاعر لفظة "رود" بمعنى الرقة والنعومة فأسبغ بذلك آيات الجمال على قيان بغداد القديمة في عصرها الـذهبي وابعـد أذهاننـا وتخيلاتنا تماما عن ذلك اللفظ العلمي المجرد.

ولكنا نجد الشاعر غير موفق في اختيار لفظـة "آنفـات" فـي بيتـه الشعري في وصف القيان:

السَّـــاهِرَاتُ مَـــعَ النُّجُـــو مِ الآنِفَـــاتُ مِـــنَ الْهُجُـــودِ

فالشطر الأول لا غبار عليه فهو يقول إن هذه القيـان يسـهرن مـع النجوم ليلا للأنس والطرب أما قوله: "الآنفات" وهي بمعنى الرافضات في كبر واستعلاء، فالانسان عندما يأنف من شيء فهو يرفضه بتأفف وتمنـع وكبرياء، فكيف تأنف القيان من الهجود أي النـوم لـيلا والهجـوع إلـى المضجع، "فالآنفات" لا تناسب السياق كما أن كلمة "الهجود" أيضـاً غيـر مناسبة ولا معبرة في هذا السياق، فالقيان عندما يأنفن من النوم ويتعالين أو يتمنعن من الخلود إلى الراحة، فليس في ذلك مزية لهن أو مدح فهل يصح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن نقول إن تلك القيان يأنفن من النوم والهجود فهل النوم شيء يأنف منه المرء، وهل يتعالى الإنسان أن يخلد إلى الراحة؟ فالنوم سنة من سنن الحياة ويسرى على جميع الكائنات، والليل لباس وسكن وستر وغطاء، ويمكن أن تتحمل تلك القينات السهر الطويل لامتداد الأنس والطرب وكل مظاهر اللهو حتى تباشير الصباح، ولكن أن يأنفن، وتستنكف القينة من هؤلاء أن تخلد إلى الراحة فذلك لا يناسب المعنى مطلقاً.

إذن "فالألفاظ" محكومة بتاريخها، كما أنها محكومة ببنائها وتركيبها مع غيرها، وأنها لهذا يمكن أن تتبادل مواقع الجودة وعدم الجودة[1].

وفي النهاية نستطيع أن نقول إن ألفاظ قصيدة "علي الجارم" "بغداد" تجمع بين الجزالة والرقة تلك الجزالة التي تنبعث من المعاني الفخمة وتتلبس بألفاظ تحمل السمات نفسها مثل: "التليد، الخلود، لوح الوجود، خفاق البنود، بهرة الملك الفسيح، صخرة الملك الوطيد، سفرن، يعبثن، خبأ، جاش أساورة، صيد، النصر، الغمود، ملك، الصعود، جهود جبارين، شم الجهود، وهج الحديد، حلق القيود، يسطع تزخر، خمود، قاتلة الخمود، يغوص، جمح، جاز، فك اهتاجه، جن، أركض، سودي، تتوثبي، تحيدي، تخطئي يصطد، الركود، سلكت، سطت، أظفار الأسود، شطت، بيد، التنائف والنجود، وقود، الركن الشديد.

هذه الألفاظ نشعر ونحن نرددها أن فيها ما يناسب المعنى من فخامة وقوة وجزالة وحين يرق المعنى ويشف وينساب في سلاسة ويسر تأتي الألفاظ زاخرة بهذه الروح الرقيقة الشفافة السلسة، ولنتأمل ذلك في هذا الحشد الهائل من الكلمات التي في قصيدته "بغداد": بسمة، زهراء، ثغر، الحب، راية، مشرق، رشف، مبسمك، البرود، زهرة، بهجة الدنيا، جنة

---

(١) المرجع السابق ص ١٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأحلام، زورة، المنى، الفن، ضفافك، أفنان الورود، التدلل، التغنن، يشدو، أوتار، عود، الضاحكات، يمسن، وشي، البرود، الساحرات، الفاتنات، بيضاء، رود، يخطرن، الأغصان، لين، ضوء، الشمس، شفق، الجمال، كنز، النصر، الخيال، يسطع، طفل، المهود، المرح، اللعوب، الدر، أيكة، الغريد، خلود، أسرار، حن، الطيف، ظل، العبقرية، المشي، الوئيد، النشيد، العلا، أشرق، نجمها، سعد، زهت، أقمار، الهدى، عيد، الصب، تشوف، نخل، الفؤاد السعيد، ظل، الحسناء، وعد، بحر، شطين، الحسب، هبائه، إحسان، جود، الحميد، منهل، عذب، عز، رغيد.

هذا التلاؤم الذي نلحظه بين الألفاظ الجزلة الفخمة والمعنى العام الذي سيقت في إطاره، وهذا التوافق الذي نلحظه أيضاً بين الألفاظ السلسة الرقيقة والمعنى العام الذي سيقت في إطاره يدل كلاهما على أن الشاعر كان مدركاً واعيا لطبيعة عمله الشعري الإبداعي، متمكنا من الوسيلة التعبيرية التي يوظفها في الكشف عن فكره ومشاعره تمام التمكن، كما يدل أيضاً على أن الشاعرية هي إحدى سمات ألفاظ الشاعر في قصيدته "بغداد".

د- التصويرية:

يقول "س.هبورتون": إن التصوير في الشعر استثارة للحواس بواسطة الكلمات"[1]، إذن فالكلمات هي الواسطة القادرة على نقل الصور بما في دلالتها وبنائها من إمكانات تعين على ذلك، ولغة الشعر لغة تفيض بالصور تلك الصور الفنية المعطاءة التي تكون أقدر على المشاعر والتعبير عنها، هذا العطاء الفياض الذي ينقلها من هيئة كامنة في الوجدان إلى هيئة بارزة للعيان ترى وتسمح وتحس بل وتشم أيضاً.

---

(١) د. محمد حسن عبد الله، اللغة الفنية ص ١٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولنتأمل ألفاظ الجارم في قصيدته لنستكشف الطاقة التصويرية في تلك الألفاظ الموظفة:

١- ولع الشاعر باستخدام أسلوب النداء في معظم القصيدة فقد استهلها بنداء بغداد وأن لم يستخدم حرف النداء "يا" وذلك لقرب "بغداد" من قلبه ومشاعره فاستغنى عن حرف النداء وخاطبها هكذا دون أن يفصلها عنه شيء حتى وإن كان حرف النداء:

بَغْدَادُ يَا بَلَدَ الرَشِيدِ وَمَنَارَةَ الْمَجْدِ التَلِيدِ

ثم أخذ بعد ذلك في مناداتها أو قل مناجاتها لأنه خلع عليها من حلل الألفاظ كل ما هو جميل ورقيق مؤكدا بذلك حبه العميق لها، واستخدم حرف النداء أو أداة النداء "يا" في أحيان كثيرة، ويقول النحويون في هذا الحرف "يا" بمعنى أقبل أو استجب وظهور فعل الأمر يوهم الأخبار[١].

إذن فالشاعر يدعو بغداد لتقبل عليه وتلتفت إليه كأنها محبوبة أثيرة لديه يدعوها فتستجيب، فيخلع عليها هو الآخر تلك الصفات الرائعة: يا بسمة لما تزل، يا موطن الحب المقيم، يا سطر مجد للعروبة، يا راية الإسلام، يا مشرق الأمل الجديد، يا بنت دجلة، يا زهرة الصحراء، يا جنة الأحلام، يا بهرة الملك الفسيح، يا زورة تحيي المنى.

فنرى الشاعر قد ناداها بحرف النداء "يا" في عشرة أبيات، ولنا أن نتخيل تلك الألف الممدودة عشر مرات، بذلك النفس الطويل المرتفع وكأن الشاعر يفرغ بذلك شحنة عاطفة متأججة داخله، تخرج مع خروج نفسه في تلك "المدات" فيستريح.

---

(١) مفتاح الإعراب، محمد بن علي الأنصاري تحقيق سعد كريم الدرعمي ص ٦٩ دار ابن خلدون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والنداء بـ"يا" كما نعرف نداء للبعيد ليأتي ويلبي ويستجيب لذا كان الشاعر موفقا حين ناجى أو نادى بغداد بتلك الأداة ليجعلها تصحو وتلتفت وتستجيب كي يُحيي فيها موات قرون خلت كانت أزهى سنى مجدها.

وعندما كان يناديها باسمها هكذا: "بغداد" دون حرف النداء كان موفقا أيضاً لأنه أعرب بذلك عن شدة حبه لها بمناداتها هكذا دون واسطة وكأنها قريبة جدا منه فلا داعي لرفع صوته لتسمعه فحبها يعيش بين قلبه وجوانحه، وعدد هذه النداءات لبغداد دون حرف النداء بلغت ست مرات جاءت متباعدة لتصور لنا أنه كان بين آن وآخر يحدثها ذلك الحديث الهامس حديث الحب والود.

٢- استخدام الشاعر لجملة من الأفعال، والتعبير بالفعل يستحضر صورة حدوث الحدث مقرونة بالزمان، هذه الأفعال مضارعة وماضية، وأفعال أمر. فمن الأفعال المضارعة قوله: تحيي، يشدو، يمسن، يخطرن، تعجب، يعبئن، تصغر، تتلو، يعش، يتعثرون، يمشون، يسطع، تزخر، ينظر، يغوص، تتوثبى، يصطد، يعف، نفيض، نحيي، يحب، يتخلصن يزخر... وهكذا.

ومن الأفعال الماضية: ظمئت، طال، نبت، سرق، سفرن، خبأ، جاش، عجز، رجعوا، عرفتها، جددت، كنت، جمع، اطمأن، استقر، جاز، فك، ذكر، حن، اهتاجه، صبا، شدا، سلكت، زهت، سطت، جئنا، فزنا، شطت، تمازجا، تعانق، جئناك، نستبقن طالت، خلتها، أحيا، غدت، عاشا، عاش... وهكذا.

أما الأفعال الأمر فهي: ردي، زيدي، عودي، اركضي، لا تهيدي، سودي، فلا تحيدي، لا تخطئي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبمقارنة هذه الأفعال ببعضها من حيث الكم نجد أن الأفعال الماضية قد استحوذت على معظم قصيدة الجارم، وهذا موافق تماماً لجوّ القصيدة، فبغداد العريقة القديمة عندما يعدد الشاعر مآثرها وأمجادها فإنما هو يخاطب فيها الماضي التليد، والأيام الغابرة بما تحمله من مفاخر ومآثر، والفعل الماضي- كما نعلم- يدل على انقضاء زمن الحدوث، ولكنه يحمل في داخله طاقة تصويرية تسهم في تصوير اللون والحركة عند تأمل هذه الأفعال.

وكذلك الشأن في استخدام الشاعر للأفعال المضارعة- وإن كانت أقل من سابقتها في القصيدة- التي تدل على الاستمرارية والتجدد والحدوث كان موفقا تمام التوفيق لعلمه أن الصورة في ذلك الفعل تحمل من الوضوح والرؤية أمام المتلقي الشيء الكثير، لأنه يشاهد ذلك الفعل- المضارع- وهو يقع، لأنه ما زال بحكم المضارعة يقع خلافا للفعل الماضي.

هذه الأفعال المضارعة مع التأمل يمكن تقسيمها إلى مجموعات تصويرية، بعضها يصور الحركة مثل: يمسن، يخطرن، يعبئن، تتلو، يتعثرون....

وبعضها يصور الأصوات مثل: يشدو، والبعض صور اللون مثل: يسطع، أو يصور الرائحة.... وهكذا.

وكذلك الحال في أفعال الأمر وما تحمله من طاقات تصويرية تحمل الحث، والبعث، والنهي، والتحذير... إلى آخر تلك الصور التي وفق الشاعر أيضاً في استخدامها من خلال ذلك الفعل الآمر الناهي، ولأن الشاعر يحب بغداد ويود لها الخير والفلاح والنهضة والبعث لتلبس ثوبها الجديد في ظل حكامها الجدد وتنفض عن كاهلها غبار السنين، وعثرات الزمن فقد استخدم لذلك أفعال البعث وحفز الهمة قائلاً: اركضي سودي، ولأنه يحبها ويخاف على مجدها يقول لها محذراً: لا تهيدي، لا تخطئي، لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحيدي... وهددا.

٣- استخدام المشتقات، وطبيعة المشتق أنه يحمل في دلالته الحدث الذي اشتق منه بالإضافة إلى ما استجد على هذا الحدث من دلالة المشتق التي تنبثق من بنيته اللفظية (اسم الفاعل- اسم المفعول- صيغة المبالغة)... إلى آخر تلك المشتقات.

فحين نقول مثلا "كاتب" فإن الكلمة تدل على فاعل وقع منه حدث الكتابة.

ولنتأمل تلك المشتقات في قصيدة "بغداد" للجارم:

زهراء، موطن، مقيم، مضرب، شرود، خفاق، مغرب، مشرق، مبسمك، الصحراء، صادقة، مجالس، الضاحكات، الساحرات، الفاتنات، الساهرات، الآنفات، بيضاء، مهضومة، جبارين، قاتلة، عهيد، طلائع، محجة، مفاخر، مرآك، العميد، المشيد، الصحراء، المرمى، المديد، الحسناء، المجيد، التدبير، الحميد، منهلا، المستزيد، منبثق، ملتقى، رغيد.

كل هذه المشتقات تأتي في السياق معبرة تعبيراً مصوراً صورة الحدث الذي اشتقت منه، وطبيعة اللغة المصورة تعين الشاعر على استقصاء دقائق الصورة ولطائفها بحيث تتكامل ظلالها وألوانها، فعندما يتحدث الشاعر عن توافد الوفود إلى "قصر الخلد" إذعاناً للخليفة وولاء، عندما يفتح الجبارون من جيش بغداد الممالك المجاورة، نرى الشاعر يصور كل ذلك في مشهد رائع فيقول:

الرُسْل تَتْلُو الرسْلَ مِنْ ... بِيضٍ صَقَالِبَةٍ وُسُودِ
سَارُوا لِقَصْرِ الْخُلْدِ يُعْشِي ... طَرْفَهُمْ وَهَجُ الحَدِيدِ
يَتَعَثَّرُونَ كَأَنَّهُمْ ... يَمْشُونَ في حَلَقِ الْقُيُودِ

وربما يقصد الشاعر بهذا المشهد المصور تصويراً حيا تدب فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحركة التي أتت من براعة الشاعر في استخدام ألفاظ بعينها تدل على تلك الحركة وهي: السير، والتعثر، والمشي، نقول ربما يقصد الشاعر مشهد هؤلاء الأسرى وهم يُساقون سوقا إلى قصر الخليفة متعثرين في مشيتهم من الذل كأنهم مقرنين في الأصفاد خاصة وأن المقام مقام حرب عوان كان جيش بغداد يجيش فيها بفعل هؤلاء الفوارس من الأساورة الصيد، فقد قال:

كَمْ جَاشَ جَيْشُكِ بِالْفَوَا رِسِ مِنْ أَسَاوِرَةٍ وَصِيدِ

ثم انتصر ذلك الجيش:

لِلنصْرِ فِي أَعْلاَمِهِمْ صِلَّةٌ بِأَبْنَاءِ الْغُمُودِ

فبعد انتهاء المعركة، وفوز الجيش بالنصر يكون هناك الأسرى وتكون هناك وفود البلاد المجاورة أو البعيدة الذين سمعوا بهذا النصر فجاءوا مذعنين طائعين يدخلون في زمرة الخليفة، وهنا جاء التصوير البليغ لذلك المشهد الذي تتابع فيه الرسل تتابعا من تلك الأمم والممالك الأوربية المجاورة لبحر الخزر والبحر الأسود في شمال وغرب بغداد، المقصودين بقول الشاعر: "من بيض صقالبة وسود"، هاتيك الرسل العديدة سارت لقصر الخليفة وقد أصيبت عيونهم بالعشا- وهو سوء البصر بالليل والنهار- من شدة توقد الحديد ولمعانه، ذلك الحديد الذي كانوا مكبلين فيه لأنهم كانوا لذلتهم وخنوعهم منكسي الرءوس فتلتقي عيونهم بتلك الأصفاد الحديدية المكبلين بها فيعشى بريقها عيونهم، أو أن المقصود بالحديد المتوهج اللامع البراق هو تلك السيوف المتلألئة في حومة الوغي، فهم قد سيقوا من وسط معركة حامية الوطيس إلى قصر الخلد، فساروا لا يبصرون مما هالهم مما رأوه من فعل السيوف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على كلٍ أيما كان مقصد الشاعر فهو تصوير لحالة هؤلاء الرسل، ثم إنه قد خلع عليهم مشهداً آخر هو القمة في الأداء الرائع والتصوير الخلاب فقال: إن هؤلاء الرسل لشدة تدافعهم للولاء للخليفة والإذعان دون حرب تراهم يتعثرون إما للازدحام والاندفاع والتتابع خشية أن يحاربهم جيش الخليفة ففيهم حرص على الولاء والإذعان السريع، وإما يتعثرون من الذلة خوفاً وخنوعاً، وفي كلتا الحالتين مرآهم للمشاهد يوحي بأنهم مكبلون بالأغلال كل ذلك المشهد يحدث في جو تتلألأ فيه السيوف وتبرق لحدتها ومضائها وتزخر فيه الأرض بالجنود وتمتلئ لدرجة الفيضان، ويا له من مشهد حي فظيع استطاع الجارم أن ينقله إلينا عن طريق تلك الطاقة التصويرية للألفاظ التي وضعها في موضعها مما أكد لدينا أن لغته لغة تصويرية حقا.

هـ- الدلالة الصوتية في جرس الألفاظ:

الدلالة الصوتية في لغة الشعر لها جانبان:

- جانب يتعلق بالكلمة المفردة حيث يتلاحم النغم الصوتي مع المعنى، وهذا ما عرّفه ابن جني بمساس الألفاظ أشباه المعاني.

وجانب يتعلق بالسياق وما يحوطه من نغم ينشأ عن التجاور الواقع في الحروف والكلمات معا، إذ يشكل مجموع الحروف نغماً يسري في الكلمة كلها، ولكنه يظل حبيساً فيها لا يشدو بالنغم إلا عندما تتلاحم الكلمات في بناء الشعر.

فالدلالة الصوتية إذن تنشأ في الكلمة من طبيعة بنائها، أي من الخصائص الصوتية لكل حرف فيها تتعلق بمخرج الحرف وصفاته وتلاؤمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع الحروف التي تسبقه والحروف اللاحقة به، فإذا حدث أي خلل في العلاقة بين الحروف التي تُبني منها الكلمة وقع ما يسمى عند البلاغيين بتنافر الحروف الذي هو أحد عيوب فصاحة الكلمة.

إن المعاني التي تدل عليها الألفاظ تتلاحم بالدلالة الصوتية للكلمة، وقد ورد ذلك كثيراً في قصيدة الجارم فهو حين يستخدم كلمة "تتلو" في قوله:

الرُسْل تَتْلُو الرسْلَ مِنْ بِيضٍ صَقَالِبَةٍ وُسُودِ

نجد تلك الكلمة تتكون من تاءين ولام وواو، فالتاء مهموسة أي أن النفس يجري عند النطق بها، وعندما تتكرر هذه التاء تعطي تتابعا يحكي تتابع هؤلاء الرسل، وتلك اللام التي تعقبها واو فينبعث من تجاورهما صوت تتابع وتواصل لذلك التتابع فالرسل يأتي بعضها وراء بعض كأنها في أذيال بعضها البعض لكثرتها وتواليها.

وعندما نتأمل أيضاً كلمة: "يسطع" في قول الجارم:

الْجَوُّ يَسْطَعُ بالظبَا وَالأرْضُ تَزْخَرُ بِالْجُنُودِ

وهذه السين المشعة وقد سُكّنت فأصبح المقطع الأول في الكلمة "يَسْ" ينبعث منه الإشعاع والانتشار والتألق ثم يجئ المقطع الثاني "طع" وما فيه من تلك "الطاء" التي ينفتح الحلق عند النطق بها فيعطي اتساعاً، وهذه "العين" أيضاً وما فيها من جهارة عند النطق بها فكل حروف الكلمة وتجاورها في ذلك النسق البديع يجعلها تشع إشعاعاً يناسب ذلك الجوّ جوّ المعركة الذي تلمع فيه السيوف وتبرق، وهكذا في سائر ألفاظ الجارم وكلماته التي تؤكد على ان الدلالة الصوتية في جرس الألفاظ لما لها من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نغم يسري في بناء الكلمة وبانعطافها على المعنى والتئامها معه هي سمة من أبرز سمات لغة الشعر.

(٢) **الأساليب:** وهي نمط من بناء الجملة والعبارة، بناء فنيا خاصا اقتضته الطبيعة الفنية فجاء مرتبطا بالصورة ملتحما بالمعنى.

من هذه الأنماط والأساليب التي استعان بها الجارم في إبراز فكرته هي أسلوب الاستفهام في أكثر من موضع في قصيدة "بغداد".

وأسلوب الاستفهام كثيراً ما يخرج عن معناه الحقيقي في لغة الشعر، وهو الفهم أو طلب العلم بشيء مجهول بواسطة إحدى أدواته إلى معنى من المعاني التي يقتضيها السياق وطبيعة المقام، وهذه المعاني تتزاحم في الجملة الواحدة لكنها لا تتنافر فحين يقول الشاعر:

بَغْدَادُ أيْنَ الْبُحْتُرِيُّ وَأيْنَ أيْنَ ابْنُ الْوَلِيدِ؟

ويقول:

أيْنَ الْقِيَانُ الضَّاحِكَا تُ يَمِسْنَ في وَشْيِ الْبُرُودِ

فلن يجيبه أحد على هذا التساؤل المرير الذي يحمل الحسرة والأسى لأنه يعلم تماماً أين ذهبوا.

إن هذه التساؤلات تحمل تلك الدفقة الشعورية المحملة بالأسى التي تعتمل بصدر الشاعر لذهاب هؤلاء (البحتري وابن الوليد) وهم ما هم من عباقرة الشعر في بغداد أيام مجدها الأدبي، وكذلك ذهاب القيان اللاتي كن يمثلن مجالس الشعر والشعراء في دولة الرشيد أو ليست الفجيعة فيهم عظيمة...؟ لذا جاء السؤال (أين البحتري، أين ابن الوليد، أين القيان) مشوباً بالحسرة دالاً على الأسى... إكباراً لهم وإعظاما لمكانتهم، وكونه يكرر "أين أين ابن الوليد فيه ما فيه من حزن دفين وحسرة بالغة على زوال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجد بغداد الأدبي.

ثانياً: التصوير الفني في القصيدة:

الصورة هي رسم قوامه الكلمات المشحونة بالعاطفة- كما يقول بعض دارسي الأدب- وعلى ذلك فالعاطفة والخيال يقفان وراء الصورة ويدفعانها إلى آفاق سامية من البيان، لذا فإن وسائل التصوير وعناصره لها دورها الفعال في عملية الدفع هذه.

ووسائل التصوير الفني كثيرة منها اللغة والتراكيب والأساليب وهي وسائل مهمة، ثم تأتي الوسائل البيانية متمثلة في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وهي وسائل فعالة تكاد تستحوذ على الجانب الأكبر في بناء الصورة الفنية، ومن وسائل التصوير أيضاً الأصباغ البديعية بما تضفيه على الصورة من ظلال خاصة.

وقد استخدم الجارم في قصيدته وسائل التصوير البيانية من مثل:

١- التشبيه في قوله حين خلع على القريض صفات الآدميين من الشدو، وشبّه لهاته كأنها شُدّت على أوتار عود:

يَشْدُو كَأنَّ لَهَاتَهُ شُدَّتْ عَلَى أوْتَارِ عُودِ

وقوله في وصف الرسل وهم يتتابعون إلى قصر الخليفة فيتعثرون:

يَتَعَثَّرُونَ كَأنَّهُمْ يَمْشُونَ في حَلَقِ الْقُيُودِ

وقوله في اتساع الصحراء وترامي أطرافها:

يَتَخَلَّص الْمَرْمَى الْمَدِيدُ بِهَا إِلَى مَرْمَى مَدِيدِ
كَتَخَلُّصِ الْحَسْنَاءِ مِنْ وَعْدٍ طَوَتْهُ إِلَى وُعُودِ

٢- الاستعارة في قوله "للغازي" ملك العراق سليل العرب والحسيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجيد:

نَخْتَـــــالُ بَـــــيْنَ هِبَاتِـــــهِ في ظِـــــلِّ إِحْسَـــــانٍ وَجُـــــودِ

فقد جعل للإحسان ظلا ممتدا ظليلاً يحمي الشاعر ومـن معـه مـن القيلولة والهاجرة والحر الشديد.

ولا قيلولة ولا هاجرة ولا حر هناك بل هي الكناية عن امتداد الجـود والعطاء والإحسان لدرجة عظيمة امتدت على الجارم ومن معـه فشـملتهم فكأنهم جلسوا في دعة واطمئنان يتفيأون ظل ذلك الكريم الجواد.

ولقد أكثر الجارم من استخدامه الاستعارة المكنية فتراها في مثل قوله حين يخلع على المعنويات صفات المحسوسات كالآدميين فيشيع في أبياتـه الحيوية والحركة والتشخيص:

يَـــا زَهْـــرَةَ الصَـــحْراءِ رُدِّ ي بَهْجَـــةَ الـــدُنْيا وزِيـــدي

و: يَـــا زَوْرَةً تُحْيِـــي الْمُنَـــى إِنْ كُنْـــتِ صَـــادِقَةً فَعُـــودِي

و: سَـــرَقَ التَـــدَلُّلَ مِـــنْ عِنَـــا نٍ وَالتَفَـــنُّنِ مِـــنْ وَجِيـــدِ

و: خَبَـــأَ الْجَمَـــالُ لَهُـــنَّ كَنْـــزا بَـــيْنَ ســـالِفَةٍ وَجِيـــدِ

و: كَـــمْ جَـــاشَ جَيْشُـــكِ بِـــالْفَوَا رِسِ مِـــنْ أَسَـــاوِرَةٍ وَصِـــيدِ

و: وَإِذَا شَـــدَا الْكَـــوْنُ الْمَفَـــا خِـــرَ كُنْـــتِ عُنْـــوَانَ النَشِـــيدِ

ومن الأصباغ البديعية التي أسهمت في إبراز الصـورة وجلائهـا: الطباق والمقابلة ففيهما الجمع بين متضادين مما يظهـر جمـال الصـورة فالضد يظهر حسنه الضد كما هو معلوم.

هذه الألوان البديعية تتجلى في مثل قوله:

يَـــا مَغْـــرِبَ الأَمَـــلِ الْقَـــدِيمِ وَمَشْـــرِقَ الأَمَـــلِ الْجَدِيـــدِ

وقوله:

هَـــذَا أَوَانُ الْعَـــدْوِ لاَ الْـــ ـــإِبْطَـــاءِ وَالْمَشْـــيِ الْوَئِيـــدِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوله:

هَـــذِي طَلاَئِـــعُ نَهْضَـــةٍ ذَهَبَـــتْ بِآثَـــارِ الرُكُـــودِ

ثالثاً: القيم الصوتية:

ونقصد بها كل ما يبعث النغم في القصيدة من وزن وقافية وخصائص اللفظ الصوتية وألوان الصبغ البديعي التي لها علاقة بالنغم.

وقصيدة "بغداد" جاءت من مجزؤ الكامل.

وبجانب الوزن جاءت القافية وبها الدال المكسورة التي تشير في حزن وأسى إلى انكسار عاطفة الشاعر وحزنه على ضياع مجد بغداد.

ونلاحظ: أن الجارم لم يأت بالقافية متكلفة أو أنه ألجيء إليها الجاءا، أو أنه لوى عنقها لما يسمى بالضرورة الشعرية. وعند التأمل لا تجد في القصيدة كلها كلمة مجلوبة من أجل القافية.

وبعد هذا التطواف الفني بين أبيات هذه الأهزوجة الجارمية التي انبعثت من نفس الجارم وحسه وروحه، وشعوره، نراه قد كرس كل طاقاته الفنية من تعابير، وإيحاءات، وصور، وأساليب وحشد شاعريته المتقدة ليبرز لنا إلى مدى شغله ماضي الأجداد التليد وحضارة الأسلاف الزاهرة فأخذ يقيد كل ذلك، وكأنه يتمنى أن يُبعث هذا الماضي، وتُنشر تلك الحضارة، فأرسل هذه الأمنيات أبياتاً بليغة تحمل بين طياتها زفرات حرى تعدد الأمجاد وتقيد مآثر الأجداد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرات في البناء الفكري للقصيدة

أولاً: عاطفة الشاعر:

حين نظم "الجارم" قصيدته "بغداد" التي نوّفت على السبعين بيتاً كان يسيطر عليه شعور متدفق تجاه تلك البلد العريق، وهو شعور الحب الذي ملك عليه قلبه وجوانحه، وشعور آخر هو الإعجاب والزهو بحضارة قديمة...

وحب الجارم لبغداد- شأن كل عربي أصيل- ليس أمراً متكلفاً أو دعوى بدون دليل، فدماؤه عربية ووطنه عربي، وجنسه عربي، وحضارته عربية صميمة، ولغته عربية، وديانته وتاريخه في مصر وبغداد سواء، حتى العادات والتقاليد كل ذلك تضمه بوتقة كبيرة تنصهر فيها كل هذه الخصائص- وهي خصائص الجنس العربي- لتتخلق منها في النهاية تلك الأهزوجة الشجية التي تحث على ترابط الأمة العربية وإحياء ماضيها المجيد فيشدوا بها كل إنسان عربي حر مع الجارم الذي يقول في تلك الروابط:

حمامةَ وادي الرافدينِ ابعثي الهَوى ... حنيناً فما أحلى الحنينَ ومَا أشْدَى

ففي النيل أرواحٌ ترِفُّ خوافقٌ ... تقاسمُكِ التاريخَ والدينَ والوُدّا[1]

أضف إلى ذلك تلك الزورات المتعددة إلى ذلك البلد "بغداد" فقد زارها مرات أربع الأولى عام ١٩٣٧م، والثانية عام ١٩٣٨م، والثالثة في العام الذي يليه والرابعة في نفس العام أي عام ١٩٣٩م أيضا، هذه الزورات التي قوّت أواصر الحب، وعقدت رباطا من الهوى بين بغداد والجارم فأصبح يترنم بذلك الهوى ويقول:

---

(١) ديوان الجارم حـ ١، ٢٢٢- ٢٢٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حَبِيبٌ إلى نَفْسِي العِراقُ وأَهْلُه وسالِفُه الزَّاهي المَجِيدُ وحَاضِرُه

هذه الزورات التي كانت تحي الأمل والأماني فيه بعودة العرب إلى ماضيهم الزاهر ومجدهم التليد عن طريق تلك الوحدة العربية الشاملة بين أقطار الوطن العربي، تلك الوحدة التي كانت مطمح كل عربي غيور على دينه ووطنه فيقول عندما زار بغداد للمرة الثانية بكل التمني والرجاء:

يَا زَوْرَةً تُحْيِي الْمُنَى إنْ كُنْتِ صَادِقَةً فَعُودِي

وقد حقق المولى رجاءه فأنعم عليه بزيارتها مرتين وبذلك برّت له بغداد بوعدها.

هذا هو الحب للأوطان... ذلك الحب الذي مازجه إعجاب شديد بأمجاد عاصمة الرشيد وحضارتها على مر العصور نشأت عنه حفاوة بالغة بتاريخها التليد فنراه يقول:

لنا في صميمِ المجدِ خيرُ أبوةٍ زُهينا بها أصلاً وتاهت بنا وُلْدَا

من نبع هذا الحب الصادق والود الصافي والإعجاب نسج الشاعر قصيدة "بغداد" فاتسمت بالصدق الفني الناتج من صدق الشعور المتولد من الحب، كما اتسمت بالتأمل وإجالة الفكر وإدامة النظر فيما تراه العين، وتلك نظرة المعجب الذي ينقب ويبحث عن بواعث الإعجاب وأسراره.

وعاطفة الحب هذه المشوبة بالإعجاب ظلت مسيطرة على الشاعر امتداد قصيدته عدا تلك الأبيات التي كانت في وصف الرحلة، والمديح، فقد استغرق ذلك الحب والإعجاب ست وستون بيتاً، بينما كان نصيب الرحلة والمديح ثلاث عشرة بيتاً فقط وهذا يؤكد عاطفة الحب المتأججة والإعجاب الشديد ببلد "الرشيد"، بيد أن تلك العاطفة لم تكن هوجاء جارفة، بل كانت متزنة تحاط بسياج من ضوابط التأمل العقلي التي تستكنه بواعث الإعجاب وتغوص على أسراره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذن كانت عاطفة الجارم تجاه موضوعه متزنة ومطردة أيضا هذا الاتزان وذلك الاطراد اللذين هما من ضوابط قوة العاطفة وصحتها مما حافظ على الصدق الفني، وانعكس على التصوير والتعبير.

ثانياً: الوحدة الموضوعية في القصيدة:

البناء الفكري للقصيدة يبدو متلاحما منذ المطلع وحتى الخاتمة، فالأفكار الجزئية تدور حول "بغداد" الموضوع المركزي أو الفكرة الأم، وكل فكرة من الأفكار الجزئية تتلاقى في السياق بما قبلها وما بعدها مما يجعل البناء الفكري للقصيدة مترابطاً متلاحما وهذا يؤكد مبدأ "الوحدة في التنوع"، فتنوع الأفكار وتعددها لا يجعل عقد القصيدة ينفرط، فالأفكار جميعها يشدها خيط متين يصلها بالفكرة الأم وهي "التغني بمحاسن الماضي وتقييد مآثر الأجداد"، بما يجعل الأفكار حول "بغداد" وماضيها العريق وحاضرها المشرق تنساب انسياباً فيه نمو واطراد.

الأفكار الجزئية المتنوعة في إطار السياق متوائمة لا تنافر فيها والانتقال فيما بينها ليس فجائياً بل هناك تمهيد بين الفكرة والفكرة يُلمح بين طيات الكلام ويستشفه القارئ بإجالة النظر وإعمال الفكر في بعض الأحيان.

ثالثاً: البنية الفكرية للقصيدة وارتباطها بالشاعر:

١- عندما تحدث الشاعر عن "بغداد" حرص أن يدير القول حول ماضيها، فاستقى أفكاره من تاريخ تلك البلد القديم أيام ازدهار مجده في العصر العباسي، ومن ثم جاءت الأفكار الجزئية متعلقة بماضي "بغداد" التليد، وآية ذلك:

أ- إعجاب الشاعر الشديد بماضي بغداد ومآثرها، والحضارة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت عليها في النواحي الفكرية والحربية فهناك دولة الأدب التي كانت في قمة ازدهارها، وهناك دولة العلم والفلسفات، وهناك المجد الحربي الزاهر.

ب- الارتماء في أحضان الماضي هروباً من الحاضر المرير الذي كانت تعيشه بلدان الوطن العربي آنذاك فالمستعمر يجثم على قلب الأمة العربية في كل أرجائها في مصر، والعراق، والشام،... ويفرض إرادته على كل شيء، فلم يجد الشاعر متنفسا لكي يشفى جراحات نفسه من ذلك الكابوس سوى التغني بمآثر أجداده وإعادة شريط ذكريات الماضي العتيق العريق لأمة العرب جمعاء لعلمه أن ذلك سوف يحفز الهمم ويحيى موات مجد زاهر ولّى فتستفيق الأمة العربية مما هي فيه من الذل والعبودية وقد كان ذلك ديدنه في كل زياراته للبلدان العربية التي زارها، يؤكد دائما على الوحدة العربية، والقومية العربية، فهو الشاعر الصائل في ميدان العروبة آنذاك.

جـ- وجد الشاعر في التغني بأمجاد الماضي ما يبعث على الشعور بالفخار والعزة، فيوقظ بذلك حماس الأمة العربية كلها ممثلا في "بغداد" ليحثها على الخلاص مما هي فيه من أسر الاستعمار أسوة بأجداد تلك الأمة الذين سادوا الدنيا وبلغوا ذرا العلا دون منافس.

د- القصيدة رسالة موجهة لإحياء المجد العربي، والتأكيد على خصائص الجنس العربي: لغة، ودينا، وموطنا فعندما تُبعث أمة العرب من جديد وتصبح مثلما كانت في ماضيها المجيد فتلك ضربة قاضية لذلك المستعمر المتربص الذي كان يفترس البلدان العربية، الدولة تلو الأخرى: مصر، لبنان، بغداد، فلسطين...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هـ- في هذه القصيدة لفت لأنظار العالم العربي اللاهث وراء الغرب المحتل له ووراء حضارته، فالبلدان العربية المحتلة آنذاك كانت تعجب بحضارة المستعمر إعجاب المغلوب بالغالب، والمستعمر نفسه كان يعزف على ذلك الوتر لتصبح الدول العربية المحتلة خالصة له في لغتها وحضارتها فتبعد عن ماضيها المجيد وتنساه

فكأن الجارم بإحيائه لهذا المجد القديم يقول بغداد وغيرها إن حضارة آبائكم أولى بهذا الإعجاب والتأثر والتأسي فقلدوا آبائكم وانبذوا حضارة من يستعمركم ويستعبدكم.

٢- هذه البنية الفكرية للقصيدة تنم في وضوح عن ثقافة الجارم وتكشف عن فكره، فقد جمع ثقافة تاريخية عن تاريخ بغداد- بل تاريخ الأمة العربية كلها- ودقائقه، وهذا ما أعانه فيما بعد على كتاباته التاريخية المتمثلة في ذلك الأدب القصصي الجامع بين القصوصة والقصة والرواية، والذي يعتبر "من مفاخر ما كتب في القصص التاريخي باللغة العربية" على حد تعبير أستاذه وصديقه المرحوم "العوامري بك" الذي أشاد بهذا أدب القصصي التاريخي قائلاً: "وقد قصد في كل رواية إلى قطعة بارزة من التاريخ العربي أو المصري فدرسها، وبلغ إلى أعماقها وتغلغل في طبائع أشخاصها وبيئاتهم، حتى إذا اكتملت في نفسه هذه العناصر، واستقام له سننها عمد لها فحاكاها من غير تكلف ولا معاناة، في لفظ مترقرق وسرد محكم، وتصوير بارع والعجب من "الجارم" الذي لا عهد لنا به من قبل قصاصا: كيف استوت له هذه الملكة القصصية في كهولته، وكيف حذق أن ينسج من خيوط التاريخ الجافة هذا النسيج البديع؟؟"[١].

٣- النزعة التأملية التي سيطرت عليه في هذه القصيدة، وتلك من

---

(١) الجارم في ضمير التاريخ ص ٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سمات الجارم، فهو يقف أمام الظواهر والأحداث ويطيل تأملها، وقد يعقب عليها تعقيب البصير بالحقيقة، هذا التعقيب الحصيف البصير يأتي في عبارة موجزة كأنها الحكمة الرائعة أو المثل الشرود من مثل قوله:

يَعْبَثْنَ بِالأَيَّامِ وَالْـ أَيَّامُ أَعْبَثُ مِنْ وَلِيدِ

فمن شأن الطفل الوليد أن يكون عابثا لا يكترث لشيء لأن مداركه وقواه العقلية لم تنضج أو تستقر بعد فتراه يصخب ويلهو غير عابئ بشيء، وتلك طبيعة في النفس البشرية في مراحلها الأولى.

وإذا كان مراد الشاعر أن يقول: إن الأيام في زمن الرشيد كانت عابثة لاهية بفعل ظروف العصر في تلك الحقبة السالفة من عمر بغداد كعبث ذلك "الوليد"- وهو الوليد بن يزيد الأموي- الذي ورث الخلافة عن عمه هشام بن عبد الملك، وقد عرفه التاريخ عابثا مستهترا- يكون ذلك ضرب مثل من القديم يوافق ما نذهب إليه.

أما استخدامه للحكمة في قوله: "ما للمعاني من حدود"، في بيته:

لاَ تَخْطِنِي حَدَّ الْعُلاَ مَا لِلْمَعَالِي مِنْ حُدُودِ

وفي قوله:

مَنْ يَصْطَدِ النمِرَ الْوَثُـ بَ يَعِفُّ عَنْ صَيْدِ الْفُهُودِ

فتلك حكمة بليغة بلورتها تجارب الشاعر وحنكته وخبرته الطويلة في الحياة فجاءت رائعة، والجارم ليس معنياً بالحكمة في أشعاره بالدرجة الأولى ولكنها تأتي منه عفو الخاطر، تتداعى لمتطلبات المقام، فلا يغوص وراءها أو يتكلفها، لذا تأتي منثورة في أبياته ترصعها فتجد لها في النفس وقعاً جميلاً خاصة في مراثيه.

٤- والجارم ينزع إلى مشربه الديني دائماً، فهو الذي حفظ القرآن ووعاه في سني حياته الأولى، وهو الذي نهل من كعبة القصّاد في علوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدين (الأزهر) وهو الدرعمي (خريج دار العلوم) الذي قبس من نهج تلك المدرسة السلفية، وهو الذي لم يتأثر ببعثته إلى بلاد الغرب، فحرى أن نرى خيوط الدين القويم في نسيج أشعاره يزين بها معانيه وألفاظه، ونلمح أثر ذلك في قوله:

حَتَّى إِذَا رَجَعُوا بَدَا بِجِبَاهِهِمْ أَثَرُ السُّجُودِ

مشيراً بذلك إلى قوله تعالى في صفة المؤمنين في سورة الفتح: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

وبعد...

هكذا كان توجه الجارم في قصيدة "بغداد"، توجه يحيي المنى، ويحفز الآمال للتأسي بالماضي المجيد.. توجه حشد له الجارم من طاقاته التعبيرية وجماليات فنه الشعري ما يجل عن الوصف ويقصر عنه البيان.

رحم الله "علي الجارم" شارعاً وأديباً ومربياً... وغيوراً على مجد أمته العربية في ماضيها وفي حاضرها وفي مستقبلها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مراجع البحث

١- الجارم في ضمير التاريخ: د. أحمد علي الجارم، ط ١٩٩٤م.

٢- اللغة الفنية: مرجري بلوتون، تعريب د. محمد حسن عبد الله، دار المعارف.

٣- المعجميون في خمسين عاماً: د. محمد مهدي علام، ط ١٩٨٦م.

٤- دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس.

٥- ديوان علي الجارم (الطبعة الحديثة) ط ١، دار الشروق، ١٩٨٦م.

٦- علي الجارم، محمد عبد المنعم خاطر، سلسلة أعلام العرب ٩٥.

٧- علي الجارم باحثاً وأديباً: محمد الغزالي حرب، دار الفكر العربي.

٨- مفتاح الإعراب: محمد بن علي الأنصاري، تحقيق سعد كريم الدرعمي، دار ابن خلدون.

٩- وطنية شوقي: د. أحمد محمد الحوفي، ط ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner